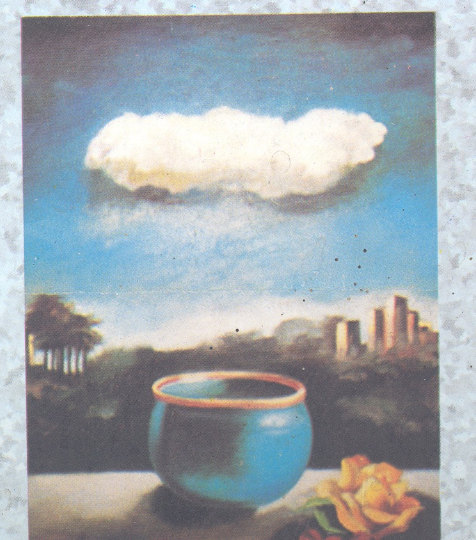




عبد العال الحمامصى

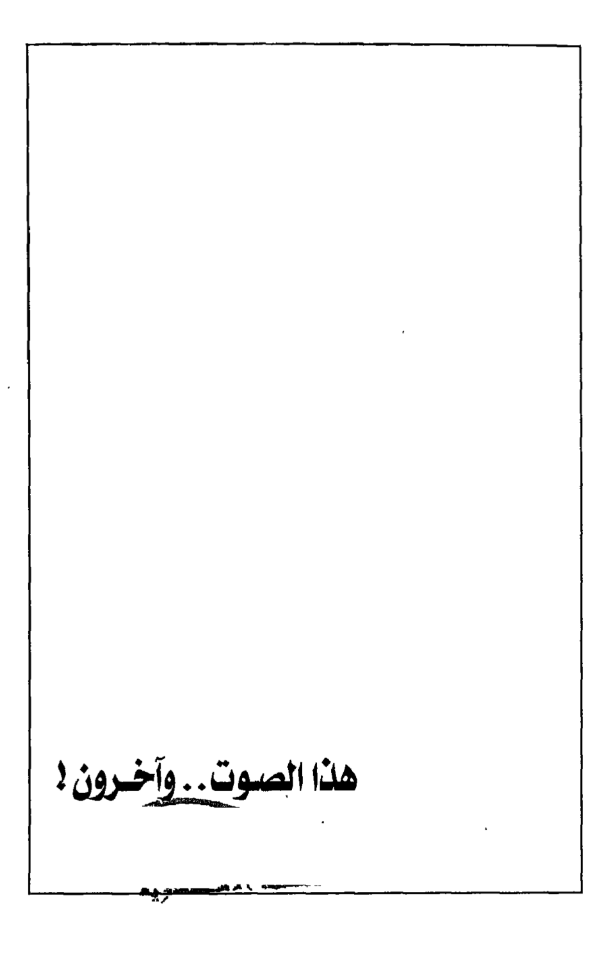
هذا الصوت وآخرون

الأعمال الخاصة





الهيئة المصرية
العامة للكتاب



هذا الصوت.. وآخرون!

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: الصوت (طبيعة)

التقنية: ألوان زيتية على توال.

عايدة أيوب

فنانة مصرية، تخرجت فى كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم لغة انجليزية)، وتتلمذت على الفنان صلاح طاهر فى الفترة من ١٩٤٦ حتى ١٩٥٠، وأقامت وشاركت فى العديد من المعارض الفردية والجماعية، وقامت بإدارة صالة عرض فى منزلها من ١٩٧٦ حتى ١٩٨٤، وملكت وأدارت صالة عرض عايدة على طريق سقارة فى الفترة من ١٩٨٥ حتى ١٩٩٥، ثم أقامت صالوناً للأدب والفن، وهى تعمل كمصممة ديكور للفنادق والمنشآت السياحية.

محمود الهندى

هذا الصوت.. وآخرون !

عبدالعال الحمامصى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

هذا الصوت .. وآخرون!

عبدالعال الحمامصى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

مقدمـــة

هـــذا الصـــوت وآخـــرون

محمـد قطـب

- ١ -

استطاع الكاتب القصصى عبد العال الحمامصى فى مجموعته الأولى « للكتاكيت أجنحة » ان ينقل لنا تجربته فى نسق فنى جميل وبأداة تعبيرية قادرة على تمثيل التجربة وتوصيلها دون الوقوع فى الابهار الشكلى . وتجربته عميقة وممتدة ومتواصلة ، وهى تجربة جمعت محورين كبيرين جمع التضـاد بينهما ، ووصل بينهما وحدة التلقى والتأثير .. وهى وحدة تأثيرية مرتبطة بذات الكاتب ورؤاه العامة . ولقد أسقط الكاتب مشـاعره وأفكاره ورؤاه على الكون طبيعة وأفرادا ، ومن ثم ندرك هـذه المشاركة الوجدانية بين الكاتب وشخصياته .

والملاحظة المتأملة لهذه الشخصيات توقفنا على أنها تعـانى ضغوطا نفسية آتية من صدمة المواجهة مع الواقع وما يكتنفه من

أعراف وتقاليد وانتكاسات فى القيم . ولقد كشفت هذه الشخصيات المختارة بعناية عن المحورين : محور الصعيد ، ومحور المدينة / القاهرة .. وجمع بينهما هذا الاحساس بالعزلة والاغتراب .. ومثل الواقع لها ضغوطا ثقيلة لا تتراجع ولا تخف مما أتاح للوجدان النفسى فيضا من المشاعر المختلطة . ومن اختلاط تجربة الذات بالموضوع الخارجى وعلاقاته المتشابكة يبرز المعنى الانسانى العام وهو الشعور بالضآلة وافتقاد التواصل الانسانى ولم يعد غريبا أن تنضح المجموعة بكم هائل من التوحش والاحباط معا .

فى قصة « المحاكمة » رصد للذات الواعية وهى تواجه تراث البيئة فى الصعيد . الذات مرهفة الحس شاعرية الوجدان . لها تواصلها الثقافى وقراءاتها فى الفن والجمال .. والبيئة / أقارب يدفعونه دفعا الى الجريمة من أجل شرف العائلة وتقاليد المكان .. لون المكان بتراثه العلاقة الجميلة بين الأخت والشاب بلون الدم . وتحول خطاب تبوح فيه البنت بمشاعرها الى أداة اتهام من الجماعة . فيثورون ثورة جائحة ـ ويكشف الكاتب حقيقة هذا الفعل المجرم ، اذ أنهم فى الحقيقة يطمعون فى المال ـ ولم يعد أمام الذات ـ بالرغم من التبرير ـ الا ان تقدم على الفعل الوحشى ـ كيف يصون الانسان رؤاه الخاصة ، وكيف يشعر الانسان بذاته ، ومتى يتحرر من ضغوط الواقع ، ولماذا يتحول الجديد / الحب الى موات وجدب ؟ أسئلة تشى بها تلك الثنائية الضدية بين الذات والمجال . واذا كانت بيئة الكاتب الخاصة / الصعيد / أخميم قد تجلت مفرداتها عبر قصص المجموعة مرورا بالكنائس والمساجد ومقامات الأولياء الى الأنوال والأقمشة ، فان الكاتب ارتقى بالجزئى المكانى الى رحابة الانسانية بامتداد المساحة وبتنوع الانسان وغزلت المفردات كلية جامعة تشى « بوحدة الوجود » وتناسقه واكتماله وتآخيه ..

فى قصة (العجوز وشجرة التوت) يسقط العجوز حبه على الشجرة .. يتحول الحب البشرى الذى يفتقده فى المجال الخارجى الى حب كامن طبيعى هو الشجرة . التى تحولت بالحاح العقلية الخرافية الى اسطورة .. وكيف لا تتحول الى اسطورة يختلف فى امرها الناس والعجوز يحيطها بكل هذا الحب ؟ ، انه يعاملها كما تعامل الأم ابنها ، تربية ورعاية وحنانا . ومن ثم لم يعد غريبا امام غرابة هذا السلوك أن يتعدد التأويل .. فالشجرة ـ كما يرددون ـ « جنية » تحب الرجل وأنها تتحول بالليل الى امراة حسناء تعاشره ويعاشرها .

ولقد ارتقى الكاتب بالشجرة الى درجة الرمز حين وصفها بأنها لم تهرم ، وأن ثمارها لها طعم العسل . ولقد تأكد هذا الارتباط فى وحدة واحدة ، واضحى المصير واحدا ، وأن الحياة بينهما موصولة ، تنتهى بانتهاء احداهما ـ وحين تهاوت الشجرة الى الأرض كان الشيخ يلفظ آخر انفاسه . (وفى نفس اللحظة التى ترنحت فيها الشجرة ، ترنحت اجفانه ، وعندما مادت وتهاوت الى الأرض ، كان العجوز قد لفظ انفاسه) .

ولقد وصل المد الفنى الى غايته فى قصة « قابيل يخنق القمر » حيث تراوح السرد القصصى بين ضمير المتكلم والمخاطب والغائب فأبان الكاتب بذلك عن شمولية الهدف واحتوائه للمفردات . كما يكرس التشابك فى العلاقة ، ويشى بجدلية ممتعة ويوحى بادانة كل من يغتال البراءة .. على مستوى الذات ، أو الجماعة ، الدولة أو العالم ككل .. ومن ثم حمل النص مفرددات تراثية عامة تحمل وتعمق هذه الدلالة . ولاح البناء الفنى واشيا بمرحلة جديدة من فن القص عند الكاتب ، والتى تحدد مجموعته الثانية .. ويتمثل ذلك فى التركيب اللغوى ، وائتلاف

بنية اللفظ مع الموقف وتجسيد المعنى والحدث صورة ومجازا ، واحتلاط الأزمنة ، والاهتمام بجزئيات الحدث القريب من التسجيل العينى .

* * *

وثمة علاقة غير منكورة بين الموضوع والابداع الفنى ، ذلك لأن اختيار الكاتب لموضوعاته اختيار مقصود بحكم المعنى الذى يقف وراءها . والاختيار يحكمه الاطار الفكرى الذى ينطلق منه الأديب والفنان .. ومع تعاملنا مع العمل الفنى ، نكتشف ــ فضلا من الفكر ــ طبيعة الشخصية الفاعلة . اننا نستطيع أن نتعرف على شخصية الفنان من أسلوبه فى اختيار الموضوعات ، فالفنان لا يتناول موضوعه منسوخا من الواقع أو مقتطعا منه ، ولكنه يقدم لنا من خلاله وأثناء تناوله فى شكله النسقى التعبيرى ، معادلا حسيا للمعنى ، والوجدان الذى ينطوى عليه العمل بالنسبة اليه كصانع للعمل وخالقه . ومن ثم يضحى التعبير الانسانى الكامن وراء العمل الفنى أقرب العناصر الابداعية الى النفس لما له من قدرة على نقل التأثير بلغة تضفى عليه وحدته وطابعه الخاص .

ومجموعة « هذا الصوت وآخرون » لعبد العال الحمامصى من هذا اللون القصصى المبدع الذى يكشف لنا بشفافية وايحاء الموضوع عن الشخصية الكامنة وراء العمل . فنحن نلمح هذا الاسقاط الذاتى للتجربة على الخارج كموضوع ثم تمازجهما فى نسيج متشابك يبرز المعنى الانسانى الذى يقصده ويعبر عنه . وبداية فان البيئة التى ينطلق منها الكاتب هى بيئة الصعيد التى ينتمى اليها ، يحملها على كتفه بما تمثله من تجارب وخبرات ظلت كامنة فى الوعى ، ثم يلقيها فى أتون المدينة بكل ما تمثله من تطور وتناقض وفساد ، وكأنما يتحاور بمحور الطهارة والفساد ليؤكد جدل الداخل والخارج فى ذات الانسان . وتظل مفردات

البيئة وشخوصها عالقة فى حالة الاصطدام بين الحلم الدفين الذى يخفيه وبين جهامة الواقع وقسوته . ومن ثم نلمح على شخوص القصص ــ وهى شخوص تكشف جوانب من شخصية الكاتب نفسه ــ هــذه المعاناة والمكابدة وهذا التوق الجـامع الى الغد الجميــل .

* * *

فى قصة « البذور والتربة » كان المنطلق والمكان هو الصعيد، ثم كان التجريب فى قلب المدينــة مع احساس بالغربة قوى « زهقت من الغربة » ، « أعاد لى الشوق لبلدى » .. وبطل القصة يواجه بالرفض من كل الأطراف كما كان بطل قصة (الخلاص) رافضـا ومرفوضا .. والشخصية فى (الخــلاص) متمردة على ســطوة العائلة وقسوتها وممارستها للقهر . لقد وقع البطل فى وهم الفردية والاعلاء من قيمة الطبيعة والايمان بقدرة الانسان على تعديل الكون وصياغته من جديد .

والقصة بتنازعها خيطان يحددان الملمح الخاص بالشخصية، فهو محب ، لكنــه مرفوض فى حبه ، وانسحب الرفض من منطق التحدى الى الخارج فرفض الواقع فسقط فى نزيفه الداخلى هذان الخيطان يمتزجان فى نسق تعبيرى واضح .

واذا كان الشر يستفحل على مستوى الواقع والأمم فانه مبثوث بكثرة هائلة فى كثير من القصص بالمجموعة . وهــذا لا يعنى أن يفقد الانسان الأمل فى الخلاص من هذا الشر ، وليس الأمل هو الالحاد ، وانما الالتجاء الى حمى الدين . لقد كان العجوز الأعمى شارة الضــوء التى أنارت الطريق ، لأن المعنى الكامن وراء العمل لم يكتمل بعد ، فلقد أحــكم الكاتب قبضــته على الشخصــية وحاصرها على تمردها وقلقها ، وضياعها .. حتى اكتمل له المعنى حين اكتشف سقطته الهائلة .

والبطل المهزوم المقهور ، النازف من الداخل ، ينكر الأديان ويتردد دعلى بيوت الدعارة ، وهو فى كل الحالات هروبٌ وانسلاخ. فى قصة « وسادة فوق القمر » نرى نفس الشخصية فى تجربة جديدة ، خلت من الاسقاطات السياسية ، وأخلصت للتعبير عن الذات المحبطة . فالبطل يحلم أيضا بأن يكون زعيما ، يعمل « لتخليص الانسانية من تعاستها ويصنع للناس حياة جُديدة » وهو المحب المحبط فى حبه ، « انها الآن زوجة وأم وربما كانت سعيدة » وهو القادم من الصعيد « كنت فى الصعيد .. أمى مريضة » وهو المهزوم النازف الذى يبحث عمن يشابهه عله يجد لديه نوعا من المشاركة وبعضا من حنان « يا أختى المهزومة .. أنا أيضا تمزقنى الهزيمة » .

ولربما استهوت الغانية وجدان الفنان. فمن يبيع اللذة يمدت حين لا تكون اللذة هى محور الفعل . ولقد لمسنا عطف الكاتب على هذا النوع من البشر فى مجموعته الأولى « للكتاكيت أجنحة » كما نلمسه هنا .. أهى المزاوجة بين الذات المبدعة الفاعلة وبين الذات الخارجية كمفرد من مفردات الواقع الجهم ؟ .. أهو البحث عن المعادل الحسى المشابه ؟ .. أم انه الانثيال العاطفى ؟ فالوجدان فى جانب كبير منه تعبير انسانى ، والفنان يعيش هذا الوجدان بكل أبعاده وزواياه . والعالم الذى يبيع اللذة ويحصد القلوب لا يخلو من لمسة وجدان باقية تتغلغل فى النسيج الآدمى ، وان غلفتها عربدة المكان وصراخ المادة . ومن ثم يكون الفقد قاسيا « انقبض قلبى .. جئت من أجلها .. ذابت فقاعات الشوق السابحة فوق سطح الرغبة .. وكانت تعطيها حيوية التوق .. ذابت » .

والمرأة فى قصتى « الأخرس والدرويش » و « البذور

والتربة » تشى بعبق التاريخ وخصوبته ، انها الامتداد للنيل والأرض السمراء ، هى الثبات الدائم الأبدى وغيرها زائل متحرك.. هى المؤمنة التى تعلو على من يقلوها ولو كان حبة قلبها، لقد كرمت الغريب وتزوجته راغمة ، وجاء من أهلها من تودد لها لكنها كرهته فقد كان قاسيا ، الى أن جاء من أحبته فارتعشت رغم امتداد العمر . انها تحمل بذرة الأمل - وهى الجوهر والحضن الدافىء .. انها مصر كما يريد الكاتب لها .

وتتحول الشخصية فى تجسيدها المادى الى رمز أسطورى « مكتوب فى اللوح أن النبع لا يجف أبدا .. » هذا النبع الدفاق كان مدخله الى الرمز السياسى . « وجاء أبوك فقتله (اى الغريب) عشقنى فارتكب الجريمة ، ولم يجرؤ احد على اتهامه ، فقد كانت الدنيا تركع لنفوذه .. » ويظل الأمل فى هذه العجوز قويا فقد تصدق ويخرج من رحمها الغلام الخارق الذى سيمحو كل عار الأزمنة ، ويحقق للحالم الواهم فكرته عن العدل . ومن يقرأ الفقرة التالية يقف على الفور على المعنى الكامن وراءها « لن أموت قبل أن أخرج من رحمى الغلام الخارق ، ذلك الذى لم تحبل به من قبل امرأة . ذلك الذى سيمحو كل عار الأزمنة ».. فالرمز هنا مستخدم باقتدار وبحذر شديد .. حيث أضحى جزءا من التجربة لا ينفصل عنها .. انه يذوب فى تركيب الجمل .. واختيار اللفظ ، ومسرى الشخصية .

لكن الأمل الحلم لم يتحقق ولا يزال الرمز قائما فسيدة النعمة فى قصة « الأخرس والدرويش » وجدت مقتولة و « المصحف الصغير فى كفها والمسبحة اليسر تتدلى من فوق صدرها .. » وهو نفس الوصف فى القصة السابقة والدرويش صوت النذير يقف ويحذر ويطلب العودة الى مرفأ الايمان ..

الايمان هو الخلاص . يطالب الدرويش البلدة « أن تغتسل من النجاسة وأن تصرع التنين ليأتي موكب الحسين القادم من كربلاء وقد تطهرت الطريق من الأفاعى » .. وتكون الصدمة قوية فلقد كانت على مستوى الواقع والرمز نعمة وبركة وعطاء وفيضا « يا لضياعكم معشر الفقراء ، منذ اليوم أنتم اليتامى والمساكين بالروح » . انه الاحساس الذى لازم بطل « الخلاص » غربة الروح . ولقد سقط الزوج المهيب بسقوط المرأة القتيل .. فقد كان يبدو متماسكا ، وكان وجودها يضفى عليه شرفا ومتعة « فهى بنت الأسياد ، سليلة العراقة ، موغلة الأصول » ويأبى اليأس الا أن تنهزم المرأة العجوز ، وتجهض وليدها ، الأمل فى الخلاص ، وحلم الأجيال القادمة .

والقصتان تتحاوران ولا تمتزجان ، لتظل المفارقة قائمة ، ويظل البحث عن الخلاص واردا . ولأمر ما ـ كانت قصة « التراب » واضحة ومباشرة ، فلم يعد للرمز مجال ، وانسحب الايحاء وتوارى . فها هى مصر تستعيد كرامتها وتحصل على خلاصها . ولقد كان البناء رهيفا فى القصص الثلاث ـ يسير فى « سيمترية » واضحة ـ خيط الحدث الذاتى لا يطغى على الخيط الرمزى الكامن وراء التعبير ، حتى تساويا فى الوضوح فى قصة « التراب » .

* * *

ونلحظ على المجموعة صوتا آسيا حزينا ، صوت لا يتوافق مع الذات ، ولا مع الزمن ، ولا مع الواقع .. ويظل عدم التوافق نغمة تسرى من القصة الأولى حتى الأخيرة ، وكأنها تنويعة على لحن واحد . يتضح ذلك فى صوره القصصية الثلاث « متعوس الزمان .. والمشاغبون .. ولحظات فى عيونهم .. وهذا الصوت

وآخرون .. » ولقد اقتربت القصة فى بنائها من الصورة والتحقيق والمقامة . وربما كان ذلك مقصودا ، فلقد تناول موضوعاتها فى غل نفسى واضح ، وكان الهدف هو ادانة المجتمع فى لهاثه صوب المادة، وتحلله من كثير من القيم والأخلاق . ولقد صدرت عن نغمة نقدية ساخرة وممرورة وهو يعقد مقارنة بين الفنان المؤمن بكلمته ورسالته وبين ظواهر أجتماعية جديدة تئد كل المعانى الجميلة فى الانسان .. حتى ليصرخ الكاتب ـ وهو نفسه شخصيات الصور القصصية ـ بندمه على مساره الذى ارتضاه فى عالم الفكر والفن . وفى هذه الصور نقف على كثير من حياة الكاتب الخاصة وهمومه المعيشية . ولقد غلب على الصور الواقعية التى تمثلت فى استخدامه لأسلوب المقامة مثلا كما فى قصة متعوس الزمان ، هذا الاستخدام الذى يسهل امكانية التلاعب باللفظ والنسق المقامى لاستدعاء السخرية والتضاد ..

والكاتب فى الصفحة الأخيرة من كتابه يوقفنا على المعنى الذى حاول أن يصوره فى أعماله كلها ، من المواجهة الحادة بين الانسان الفنان والواقع الجهم ، من الحلم الذى وأده الغيلان « من ذا يشفينى من مرض عدم التوافق مع هذا الزمن » .

وفى قصصه الثلاث التى وضعت تحت عنوان « أغنيات حزن وحلم » يصل الابهار الفنى الى درجة عالية ، فالعنوان وان كان ينسحب على القصص ككل ، الا انها تفردت بالتشكيل الجمالى الخاص بها حيث نلمح الاستخدام العصرى للاسطورة فيصوغها صياغة جديدة مستغلا المغزى العام للأسطورة ، سواء اكانت « قابيل » أم « سالومى والنبى يحيى » أو اسطورة الطوفان وسفينة نوح .. الخ وهو فى كل يحاول الافادة من اشاعة الجو التاريخى الذى يلازمها فى بناء تجربته وتشكيل موضوعه وابراز المعنى الكامن وراءها لاثراء المضمون .

وهو يتصرف فى بناء الأسطورة ليستخرج دلالات جديدة ، واعيا تماما بالخيط الفاصل الذى يفصلها عن الواقع ومنطقه . والصياغة الجديدة لهذه العوالم التاريخية تتميز بميزات جمالية واضحة لا تخطئها العين الواعية ، أمام هذه القدرة الفاعلة فى التشكيل ، فهناك الوحدة الخيالية التى ترصد كل المجازات الذهنية فى ضفيرة فنية باهرة ، لتوحى بالمعنى الرمزى الذى يستقطب العمل وينبع منه مع قدرة هائلة على الامساك بالفورة الانفعالية الجياشة التى يتخرك فى داخلها الحدث والشخصية .. فيؤدى الى التماسك الداخلى للعمل الفنى ، ومن ثم يتردد على سطحه ويتغلغل فى داخله ايقاع الوحدة والتنوع ، فيفوح العمل بمزيد من الشعر والغنائية النابعة من صياغة الكلمات والتكرار اللفظى ودوران العبارة ، وأصبح للكلمة دورها القوى فهى لا تصف تجربة وانما تنقل التجربة فى صهدها ونفسها الحار ومن ثم تحدث الرجفة الفنية المتواصلة .. حين قذف بالمتلقى فى اتون العصر بتناقضاته وهمومه ومشاكله وطموحاته ..

فى « قابيل يخنق القمر » يتراوح التعبير بين ضمير المتكلم والغائب والمخاطب ، ليبين شمولية المعنى وبعثرته على زوايا الموقف والحدث . فالانسان المتحدث يتحول الى « هو » ليعطى التشابك بين الاثنين . وهى محاورة فنية ممتعة تمثلت فيها الجدة فى البناء واللغة وتمازج اللفظ ، كبنية أساسية فى العبارة مع مجرى الحدث ومسار الشخصية ، فاختيار لفظ « صابرة » يوحى بالدلالة الرمزية المصاحبة له يوضحها هذا التعبير الشمولى « انها تدخلنى اغوار انوثتها ولكنها تلفظنى الى السطح كلما حاولت الاستيلاء على روحها .. » ويظل للبطل فى القصة ولعه الشديد بالعدل ومشاركته لآلام الآخرين مثله فى ذلك مثل بقية أبطال القصص .

ولا شك أن اختيار يوحنا « فى قصة يوحنا يبشر فى الحانة » من بطن التاريخ يحمل دلالة المعنى المصاحب ، خاصــة اذا علمنا انه مات مقتولا من أجل راقصة يهودية مترعة بالاثم والفجور .. وهى « كقابيل » تبدأ بالفعل المــاضى كمدخل الى استيلاء التاريخ ومزاوجة بين القديم والحديث .. فالشر منذ القدم واحد لكنه يتزيا بأزياء مختلفة .

ومع هذه الجهامة التى تواجه انسان العصر فقد تنبأ الكاتب بحتمية الخلاص وبقوة الارادة ، فى مواجهة الشر وبقدرة الانسان على صياغة حياته وحمايته . وحين يصــل الانسان الى نقطة البدء ليفتح امامه الطريق تسقط البومــة ، وتكف عن النعيــق ويصدح الصوت بالغناء فى لغة صوفية (فى قصة الساعة ٢٥) : « طوبى للذين يطرقون ابواب الغد ويرصفون طريق الخــلاص ، ويواصلون المسير ويقتحمون المصير » .



وسادة فوق القمر

جلست فوق المقهى الشعبى الصغير كالمعتاد .. للتو حدجتنى نظرات الفضول والشك والعداء .. تجاهلت النظرات وصفقت فجأة (الجرسون) العجوز بساقه المبتورة . عرفنى بعد أن تفرسنى طويلا بنظراته الخابية .. تكاثرت أخاديد الهزيمة فوق جبينك يا صاحبى . صافحته وطلبت الشاى .. تباعدت عنى النظرات ، مصافحة العجوز لى اشاعت الأمان . واصلوا اللعب يا اخوة .. واصلوه ليس الغريب « مخبرا » .. عاد الدخان الأزرق يتكاثف بعد ما تنفثه الحلوق المكدودة ويموج السحب فى الأركان .

جلب العجوز لى كوب الشاى واقترب يسألنى ان كان مجيئى كالعادة . فأجبت بايماءة سريعة تعنى الموافقة .. تركنى العجوز وغاب دقائق ثم عاد يهمس لى بالذهاب .. فدفعت الحساب وما فيه النصيب . وانزلقت من الباب فى هدوء بعد أن مسحت الزقاق بنظرات طائرة وتأكدت من عدم وجود عيون خلف

نوافذ البيوت .. صاحبة المنزل البدينة ذات الوشم الأخضر تحت ذقنها تتربع على وسادتها العريضة في وضعها المألوف تنفث من فمها سحبا من دخان « التنباك » الذى تجذبه بشدة وشبق من « شيشة » متوهجة الجمرات أمامها .. وتنطلق سعلاتها متلاحقة يرتج لها الشحم المتراكم فوق بدنها .. ابتسمت لى مرحبة وهى تشير الى حشية فوق البساط لأجلس عليها .. ثم سحبت « مبسم الشيشة » من فمها تسألنى :

ـ اين ارضك .. حرمتنا من انسك .. لك مدة ؟!

ـ كنت فى الصعيد . أمى مريضة ..

ـ سلامتها . (زبيدة) عادت الى زوجها فى (المحلة) .. دائما كانت تسأل عنك طيبة هذه البنت وعشرية ..

انقبض قلبى . جئت من اجلها .. ذابت فقاعات الشوق السابحة فوق سطح الرغبة .. وكانت تعطيها حيوية التوق .. ذابت .. !!

ـ لا تحزن .. عندى ما يعوضك .. لماذا انت حزين هكذا .. هنا بيت الانبساط .. افرد وجهك يا اخى . واضرب الدنيا (الف صرمة) !!

لم أقل شيئا .. حاولت أن أبتسم .. ونادت على خادمتها فجاءت العجوز الدميمة التى اعرفها بوجهها المستطيل المعروق الملىء بغضون متجعدة ومتداخلة قالت لها :

ـ احضرى وداد وفاطمة .. والبنت المنصورية ما حكايتها ساعتين لها مع الولد الكهربائى ..

خرجت العجوز وهى تغمز لى بعينها ذات الرموش المتآكلة. واشارة من يدها تعنى منحتها المعتادة . ابغضك يا امرأة ..

انفضك .. كلماتها . مداعباتها .. غمزاتها . كل ما يحدث منها يثير فى نفسى احساسا بالغثيان .. مداعباتها المكشوفة تعذب فى دائما كل المشاعر التى احاول ان اتجاهلها فى كل مرة قمت فيها برحلة البحث عن لحظات تحدث هزة هروب لحياتي النامية فى سراديب القرف .

جاءت وداد وفى اثرها فاطمة .. كل منهما ترسم ابتسامة تقطر اثم الزيف .. وداد فارعة رشيقة . بيضاء مشربة بحمرة تختلط بشحوب الارهاق . عيناها بلون البرسيم (فاطمة) سمراء ممتلئة ينسدل شعرها الأسود حتى يغطى جانبا من كتفيها لم يفلح الكحل الأسود الذى طمست به عينها الضائعة . أن يزيل احساسها البادى بعدم الثقة فى نفسها . وقفتها المرتبكة .. نظراتها المتوجسة القلقة .. ابتسامتها (المريضة) .. كل ما فيها يؤكد انها عانت من قبل مرارة الاحساس بأنها مرفوضة !!

عملية محرجة أن يكون للانسان حق الاختيار وجها لوجه فى هذه المسألة .. تحتاج الى شجاعة وربما صفاقة انسان لا أستطيع ان اكونه .. وداد تقف وهى تحدق فى بجرأة واثقة بينما تقف فاطمة ساهمة .. توشك أن تلفظ الحياة ابتسامتها .. فى عينها الاحساس بالهزيمة . برغم هذا تولينى نظرات مستجدية من عينها السليمة .

عندما رفعت نحوها راسى شحنت نظراتها بضراعة تحاول أن تخاطب فى شيئا بجانب ما جئت من أجله .. هرب بصرى الى « شيشة » المراة البدينة .. لا مجال للانسانية هنا يا صديقتى .. ليست هى التى تحكم الموقف وتحدده .. كلما هممت بانهاء عملية الاختيار الوقحة تربكنى مشاعر مبهمة .. تمنيت لو ان تواتينى الشجاعة الأغادر البيت نهائيا .. اشرت الى وداد اخيرا

لأنهى التساؤل المتعجل فى عينى السيدة البدينة .. وبصرى الى الأرض مخافة أن يرتطم بخيبة الأمل فى عين فاطمة .. غفرانك يا أختى المهزومة .. انا ايضا تمزقنى الهزيمة !!

ووجهت السيدة كلماتها لوداد :

ـ اطلعى به فوق .. وكونى طيبة معه .. ابسطيه .. فهو « زبوننـا » .

واردفت تخاطبنى :

ـ أستاذ محمود .. ورحمة والدك . البنت « العوراء » مسكينة ومقطوعة ..

جاءت هاربة من « سنباط » ولا تعمل حتى بقوتها .. زكاة عن شبابك اعطها حاجة جبر خاطر !!

شعرت بالارتياح لأن فاطمة كانت قد خرجت حتى لا يتسع جرحهـا ..

وتبعت وداد الى الطـابق الثـانى . وأنا أكابد الاحتقـار لنفسى .. نظرات فاطمـة الكاسـفة كانت توخزنى .. كل مرة جئت فيها هنا عانيت الاحساس بالكابة والهزيمة لشعورى بأننى اشترى لحظـات حب مريض زائف أدفـع ثمنهـا من اذلال كل الأشياء الطيبة فى نفسى .. كل مرة عانيت فيها هذا الاحساس . خصوصا بعد الانتهـاء من مهمتى .. هـذه المرة جاشت نفسى برغبة فى البكاء ..

وفتحت وداد باب غرفة مغلقة النوافذ عتمة .. وهى تغنى بصوت يشبه مواء قطة حبلى ثم اشـارت الى « لحـاف » فوق الأرض فخلعت حذائى وجلست فوقه صامتا .. لم أتفوه بكلمة.. لم تبدر منى حركة .. كنت تائها يستغرقنى الاحساس بأن ثمة

خيوطا ما تربط بينى وبين فاطمـــة .. ونظرت نحوى وداد حانقة مستغربة فأبعدت وجهى عن نظراتها .. طلبت منى بلهجة قرفانة ساخطة .. أن .. انتهى !

احدثت كلماتها ثقوبا فى كبريائى .. غرست فى نفسى شعورا حادا بالمذلة .. لم اكن مبتدئا اعرف انها مسألة لا مجـال فيها لأن اطلب ما هو فوق امكانات الوضــع . اعرف هـذا . ولكنى تعودت ان اغلف هذه اللحظات . بمحاولة ابتعاث مشاعر متعاطفة بينى وبين الغريبة التى اجدها .. لأغرق فى لحظات وجودى معها ازماتى النفسـية التى اعانيها لاحساسى بأن حيـاتى تنمو فى وجه مقاومة متشابكة ، تشـل اية محـاولة لتحقيق ذاتى .. بجانب احساسى بالعجز عن تكوين بيت يخصنى .. ويعطينى هناء الحب وسلام المشاركة . ويعصمنى من تمزيق وجدانى فى بيوت عطنة .. كنت أغطى مهانة الوضع محاولا بلباقتى ان أوقظ فى التى معى مشاعر الأنثى العاشقة التى تعطى بقابلية لحبيبها .. انها حاجـة لجسدى تتشابك دائما مع تطلع روحى الى الحنـان .. كنت انجح أحيانا .. وما أكثر اللواتى كن ينظرن الى كمخلوق خرافى وافد من ارض غريبة !! عادت وداد تتساءل ساخطة عن حكايتى .. فناشدتها بلباقة وحنو أن تكون طيبة لتعطى لحظات تعاطف لانسان مثلها . ما كدت أقول هذا حتى حدجتنى بنظرات مشحونة بدعارة روح امتص السقوط تماما انسانيتها .

ــ يبدو انك رائق المزاج يا اســتاذ .. دعونا فى قرفنـا وغلبنـا .

اطرقت الى الأرض واجما .. « زبيدة » كانت طيبة معى .. كانت تدرك شدة حاجتى الى الحنان فتأخذنى فى حضنها وتهدهد

احزانى بحنان قلبها آخر مرة ليلة عيد الميلاد الفائت سألتنى عن امنيتى ، فأجبتها بأن الموت هو أمنيتى .. فلا شىء يمكنه أن يقدم لى الخلاص غير الموت وحده .. فوضعت يدها فوق راسى تسألنى .. لماذا لا اتحدث دائما الا عن الأحزان .. قلت لها بأن كل شىء يعطى ما لديه .. الحنظل لا يمكنه أن يفرز الشهد . كانت احيانا تبكى معى وتختلط دموعى بدموعها .. اتراها سعيدة بالعودة لرجلها .. وموفقة ؟ ..

ـ أستاذ .. انت .. خلصنا .. اليس ورائى غيرك .. اليوم الجمعة .. البعض موعدهم اليوم !

كبريائى تنزف الاذلال .. اغتال الهوان رغبتى تماما . تثاءبت وغطت فى نومها .

ـ استاذ .. خلصنا .. كنت تظننى تلميذة ؟ !

خطر لى أن الأخرى .. فاطمة .. ربما كان لديها من طيبة القلب ما كان وفر على تعذيب مشاعرى هكذا . المخلوقات الكسيرة دائما قلوبها طيبة .. عندما طلبت من وداد أن ترسلها لى لم أكن اعنى غير أن اتخلص من موقفى معها .. نظرت الى فى دهشة :

ـ يبدو أنك « خلقى » جدا يا أستاذ .. طيب لا تغضب .. الواحدة منا مرغمة .. لو طاوعنا كل واحد على مزاجه لن تحصل على ارزاقنا .. كل واحدة فينا تجرى على عيالها .. الزمن رمانا . والمكتوب !!

وانطلقت زفرتها حارقة زادت من احساسى بالعار .. مسألة ارتزاق ، فلماذا أطلب المستحيل . ما دمت أدرك هذا .. زمان .. مفتش العربى فى المدرسة الثانوية سأل التلاميذ عن أحلامهم للمستقبل .. كنت وقتها شغوفا بقراءة قصص تتحدث

عن الظلم وعذاب الانســـان فأجبت بأنى أريد أن أكون زعيمـــا يعمل لتخليص الانسانية المضطهدة من تعاستها . ويصنع للناس حياة جديدة . مغايرة . ينتقمون بها لكل تعاسات الأزمنة !!

قهقه الرجل ساخرا من طموحى وهمس فى اذن أســتاذى « تلميذك لديه خيــالات ربما تتبعه .. يحــلم بوســادة فوق القمر ! » هه وسادة فوق القمر ليتنى أراه . لأقول له تغيرت نوعية أحلامى يا سيدى . أحلم الآن بوسادة من تراب مقبرة !!

دنت منى ودداد فأبعدتها برفق .. فنظرت الى وتأكدت إنه لا جدوى من أية محــاولة تبذل لاسترضائى .. فغادرت الغرفة وتناهى الى صوتها وهى تقفز درجات الســلم وتنطلق قهقهتها عربيدة صاخبة :

ـ تعالى له يا .. فاطمة هانم .. الأستاذ بســلامته من هواة الحب ..

حب .. ! القروش التى أدفعهــا هنا اقتطعهــا على حساب حاجات ضرورية لى .. ولكن ماذا افعل ، قوة قاهرة تدفعنى للمجىء .. كلما تكاثرت أحزانى . عسانى أغرقها فى تشنجات الرحلة الملتاثة .. وجاءت فاطمة فى نفس اللحظة التى أزمعت فيها مغادرة البيت نهائيــا .. جاءت متهللة الأسارير فرحة .. وقد أسدلت خصلة من شعرها فوق العين المفقودة .. ابتســمت لى خجلى وهى تقترب منى سائلة عما حــدث . ولم أجب بشىء فدنت تحاول الالتصاق بى . فقبلتها فوق خدها .. ثم أبعدتها منى عندما همت باحتضانى .. فانبثقت الدهشة غير غاضبة من عينهــا :

ـ مالك .. عصفورتك .. خاصمتك . ؟ !

عصفورة .. لى انا .. ! ليست لى حتى بومة تخصنى ..

كانت لى واحــدة وكنت أدعوهــا فعــلا عصــفورتى .. كانت تشقشق فى خميلة احلامى .. وكنت ادخرها للغد بعدما اتخرج من الجامعة . وافترش بجوارها وسادة فوق القمر .. ومات ابى وترك لى كتاكيت على أن اطيل اجنحتها .. وماتت أيضــا اجلامى .. وسدتها شركة المقاولات فى مقبرة الأرشيف .. مرتبى ابعث بأغلبه لبطون العائلة فى الصعيد قلت لعصفورتى بأن الأقدار ما دامت قــد ألقت على عاتقى بالمسـئولية فيجب أن أكون فى مســتواها واننى لم أعد أستطيع توفــير الســعادة لعصــفورة مثلهــا ..

بكت عصفورتى .. قالت لى بأنها ستكون سعيدة معى .. ســواء فى « هيلتون » أو فى أى « بدروم » المهم أن تكون معى .. وبعد ذلك لا أهميــة لشىء اطلاقا .. بدموعها والتياعها . ولهاث قلبها أكدت صــدق كلماتها .. لا .. حرام .. يا صغيرتى أن تموت أغاريد العصــافير فى الربيــع .. حرام .. وهربت منها . لمــاذا أقبر أحــلام ربيعهــا فى سراديب مشــاكلى . .انهــا الآن زوجة .. وأم .. وربما كانت سعيدة !!

ـ احك لى عنها .. عصفورتك .. أرنى صورتها ..

امتدت يدى تمســك بخصلة من شعرها فنامت رأســها على كتفى .. برفق رفعتها . ثم تحاشيت نظراتهــا ووضعت يدى فى جيبى وأخرجتها بورقة نقدية صغيرة وضعتها فى يدهــا وتوجهت نحو البــاب صامتــا .. قبــل أن أخــرج كانت قــد لحقت بى ..

ـ أستاذ .. قل لى .. ما هى حكايتك .. ؟

ـ ابدا .. اشعر بصداع .. واعياء .. رايت من الأفضل أن أرجع الى البيت لأنام ..

وأردت أن أواصل المسير ولكنها تصدت لى ووضعت الورقة فى جيبى بهدوء وانسابت دموعها ..

وبلعت ريقى عدة مرات الى أن وجدت الكلمات ..

ــ فاطمة .. لا أعنى شيئا مما خطر لك .. صدقينى .. المعلمة أفهمتنى أنك جديدة هنا .. ربما تكونى فى حاجة الى شىء .. صدقينى اننى مريض .. سأعود لك مرة اخرى ..

كآية صارمة تختلط بالدموع فى عينيها ..

ــ لا .. استبقها فلوسك لنفسك .. يا سيدى .. تنفعك لواحدة أخرى .. حلوة .. لن أسمح لأحد ولو أكلت حتى تراب الأرض أن « يجبى » على !!

واعطتنى ظهرها .. ومشت تشهق بدموعها .. لا جدوى حتى من الكلمات .. ما جدواها ؟ ...

وضعت يدى فى جيبى وهبطت الى الدور الأرضى بخطوات متثاقلة بالهزيمة لأجد العجوز فى انتظارى .. وهى تمد لى يدها .. وصاحبة البيت البدينة تجذب انفاس شيشتها وترحب بزائر جديد !!

الخـــــلاص

واصل سيره صامتا ، خطواته وئيدة .. مترفعة . وبصره الى الامام ليتحاشى نظرات الفضول التى تتفرسه بها العيون على مدى الطريق ، وهو يمضى رافع الرأس ، يحـاول ايهامهم بأنه لا يبالى بشىء . وانه مازال يمتلك الكبرياء ولكن النزيف بداخله لم يتوقف .. عبثا يحـاول ايقافه . عبثا . لن يجدى افتعـال الكبرياء .. نظرات العداء والمقاطعة تعذبه .

لو طـاوع نفســه لتوقف يصرخ فيهم .. أبعدوا نظراتكم عنى .. أبعدوها .. لو اننى خنت مصالحكم لمـا كنت فى هـذا الوضع .. اغبياء .. ولكن .. لا جدوى من التحدى .. لن يحرز الا الهزيمة ! واقترب من مكتب المحـامى صديقه .. قبل أن يخطو الى مدخل العمارة تناهت اليه كلمات العجوز لابنهـا وهى تهبط السـلم مسـتندة على ذراعــه .. « المحامى هو الله يا ولدى .. وهو معك برغم كيد أولاد الحرام » لو كان يؤمن بالغيب لوجد فى كلمـات العجوز فالا طيبـا .. ذكرته العجوز

بأمه .. لو كانت تعيش لأجرت بمسبحتها ألف « استخارة » ..
ولما تركت واحدا من اصحاب الأضرحة الا وتمسحت بأخشاب
مقامه .. الشعور بالوحدة ينفث الصقيع فى قلبه .. ما أقسى
أن يكون الانسان وحيدا فى محنتـه ! .. منذ أن خرج من
التحقيق بالكفالة المالية .. ولا أحد يقترب منه كأنه الوباء ..
جحود الأصدقاء لا يهمه . عداء ابناء المدينة هو الذى يعذبه ..
لم يعد يحتفى به أحد .. حتى تحيته لهم يردونها بفتور .. فوق
هـذا يواجه فى عيونهم الاحتقار عندما يقسر نفسه وينظر اليهم
اثناء مروره .. قالت له خادمته العجوز بأنهم لا يغتفرون له
مسألة ضريح « السيدة عزيزة » .. ربما كانت هى السبب
الذى جعلهم يصدقون التهمة المنسوبة اليه .. حساسيتهم
الدينية تجعلهم لا يستبعدون اى تصرف من انسان لا يثقون فى
دينه ! ظلت الخواطر تتنازعه وهو يجلس صامتا فى استراحة
مكتب محاميه . ريثما يفرغ من بعض موكليه .. كلمات
الأمهات الريفيات لأبنائهن من اصحاب القضايا تنفث الوجيعة
فى قلبه .. لو كانت أمه تعيش لوجد قلبا يؤمن ببراءته ..
يحزنه انها غادرت الدنيا غير راضية عنه .. كان يحنقها أن تجد
المؤذن ينادى لصلاة الجمعة بينما يدير هو اسطوانات الموسيقى..
وتهطل دموعها عندما يتهكم عليها ساخرا من مسبحتها
و « أوراوها » وابتهالاتها .. وتلوذ بغرفتها وترفع يديها نحو
السماء تناشد الله ان ينفذ الى قلبه .. ويهديه ! ..

وماتت محزونة عليه .. فقدها وفقد سلوى فى عام
واحد .. وخفق قلبه عندما تذكر سلوى .. كم ابن لها الآن يا ترى
من زوجها .. لا جدوى من استرجاع الذكريات .. يكفى انها
سعيدة ! . وفرد الصحيفة التى اشتراها من البائع فى الطريق ..
دهمت الكآبة وجدانه عندما قرأ المانشيت العريض عن اقصاء

الزعيم العالمى من جميع مناصبه .. اخذ ينظر للعنوان بذهول قبل أن يتابع التفاصيل . كيف .. كان فى أوج قوته ومجده .. كان طيبا وحنونا يحب الزهور ، والأطفال ويقذف « النكتـــة » طريفة من قلبه . كان يترنم بأنشوددة السلام وتجاه الذين يرقصون على حافة الهاوية .. كيف لم يحتملوه . غريب هـــذا العصر .. غـــريب !

طوى الصحيفة ونهض متثاقلا عندما دعـــاه الكاتب لمقابلة محاميه ودخل بخطوات مكتئبة .. ولم يعطه المحـــامى فرصـــة ليتحدث معه عن الزعيم المخلوع .. ما أن صافحه حتى اندفع يتحدث فى القضية مباشرة ..

ـ معذرة .. يا باشمهندس .. تعودت أن أكون صريحـــا مع عمـــلائى .. درست القضية جيدا .. يؤسفنى اننى لم أجد فيها ثغرة انفذ منها لصالحك .. كل القرائن ضدك !!

ارتج قلبه وهو يحدق فى المحـــامى صامتا والأخير يواصـــل كلماتـــه :

ـ بجانب أن التحريات تدينك أيضا . تقرير المباحث . وشهادة رجال الأعمال .

أقوال زملائك أيضا تشكك فى أنك كنت تطلب الأتاوة من أصحاب المصالح والمبانى. وقد سبق التحقيق معك فى شكايات مجهولة .. فوق هذا ثمة شبهات تحيط بسلوكك .. بجوانب تحديك لمشاعر الناس الدينية .. وسخريتك من معتقداتهم .

وانزلقت الصحيفة من يده .. ولم يهتم باعادتهـــا . نكس رأسه الى الأرض بدون أن يقول شـــيئا .. وقعت البقرة ..

الغضب يفرز الاحتقار فى أعماقــه .. لكل شيء .. للمُحــامى بكلماته المنتقاه .. والأوغاد .. الزملاء وجدوها فرصة لينهشوا فى لحمه .. كانوا يكرهونه . وكان هو يعرف هــذا جيــدا .. منذ أن جاء الى هذه المدينة وهو يحــاول أن يتحدى الفساد الذى ينخر فى ذممهم . لقد اثروا جميعا من عمليــات الرصف والبناء بتواطئهم مع المقــاول الكبير . وأخيرا دبروا له تهمة الرشــوة بواسطة احد اعوان المقــاول .. واحكموها . انتصروا اخيرا .. وعاد المحامى يقطع الصمت :

ـ كل هــذا يدعــونى لأن اعتــذر عن قبول القضــية لن استطيع أن اغامر بسـمعة مكتبى فى قضــية خاسرة . لا تهمنى الأتعاب .. يهمنى شرف المهنة !!

حــدق فى اغوار عينيه باحتقــار حزين . ونهض مستأذنا وخرج الى الشارع تستفرقه أفكاره . شرف المهنة . وفى بيتــك القمار حتى الصباح . والخمر . شرف المهنة . أم قضايا المقاول فى مكتبك .. أنا الذى خدع فتوهمت أن شرف المهنة يقتضيك الدفاع عن صديق برىء بغض النظر عن مصالحك .. كنت تزعم صــداقتى .. وتطلبنى لو غبت عنك يوما .. كنت تدبر الخطط لأتزوج بواحدة من أخواتك العانســات .. الآن .. عندما ضاع الصيد تتحدث عن شرف المهنة !!

لن يذهب لمحــام آخر .. سيتولى هو الدفاع عن نفسه . لا يهم أن يدان .. كل ما يهمه أن يقول رأيه . فى كل شيء . فى المقــاول وأخطبوط علاقاته . وفى زمــلائه .. وفى المجلس .. سوف يفضح ما يحدث من خبايا تحتية فى هــذه المدينة الغافية المخدوعة .. حقا لا تتوفر لديه الأدلة . ولكن المهم أن يفتح عيون

الناس . وليحدث ما يحدث .. ليقيموا ضده قضايا قذف . ليشنقوه حتى . فلم يعد لديه ما يخاف أن يفقده .. ضاع كل شيء حتى شرفه . ولكن الجماهير يجب أن تعرف .. الجماهير .. انها معبأة ضـــده .. ولكنه ذنبه .. لم يرتبط بها . كان منفصلا عنها . متعاليا على غبائها وسذاجتهـــا . أخذ يقـــاوم الفســـاد بلا قاعدة تحميه . فتمكنوا من اسقاطه .. الآن .. كم يمزقه الندم . كان هو الغبى وحده !

أين يذهب الآن . لم يعد يطيق البقاء فى البيت تطبق عليه هواجس الوحدة . فى النادى سوف تحيط به نظرات الشماتة من عصابات الموظفين هناك .. لقد سقط وها قد واتتهم الفرصة لاذلاله .. والانتقـــام لسخريتـــه من دناءتهم ونفاقهم . وتفاهـــة اهتماماتهم . لا يهم . واصـــل سيره الى النادى . فى الطريق وجد غلمان المدينة يعلقون الأعـــلام الملونة احتفالا بمولد « الســـيدة عزيزة » وواجه الميدان حيث يقع ضريحها وسطه تماما .. هل ضاقت المدينة فى وجه ناسها فلم يجدوا لها غير هذا المثوى الذى يشوه منظر الميدان .. ويعرقل حركة المرور ؟ !

عندما قدم للمجلس اقتراحه بنقل ضريحها من الميدان ثارت عليه جماهير المدينـــة . وحمل عليه واعظها فى خطبة الجمعة .. وتواترت الشائعات عن الحـــاده .. حقا لم يكن هو يتحفظ فى المجاهرة بآرائه غير المتدينة . ولكن على نطاق ضيق فى مجالسه الخاصة بين صحابه .. ولكنه عندما قدم اقتراح نقل الضريح . لم تكن تعنيه الا ضرورة تنظيم وتجميل مدخل المدينة..

ووجدها الخصوم فرصة لتشكيك الناس فى مقصده . ومن يومها والمدينة تحمل عليه وتجاهر بالعداء له ! ..

وعندما لفقت له تهمة الرشوة صدقها الناس .. انسان بلا دين لا يستبعد منه أن يقترف الكبائر هكذا قالوا . ولن يجسر على ازالة ضريح واحدة من أولياء الله لها كراماتها . ومكانتها فى قلوب الناس الا رجل لا خلق عنده .. ولا شرف . ووجدها أصحاب الطرق الصوفية فرصة للتأكيد بأن سرها « الباتع » قد تبين فيه . وأن « الحسين » جدها قد انتقم لها .. وكلما سار فى الطريق قذف بها البعض فى وجهه .. « مدد يا حسين » .. مدد يا ست .. الجزار فى مدخل الزقاق يصفعه بها كلما رآه ..

جلس بجواره منضدة نائية بعيدا عن تجمعات الموظفين . واطلق نظراته تتجول ما بين أشجار النادى وأعشابه والصغار الذين يتواثبون فى فنائه . والفتيات اللواتى يلعبن « كرة السلة » بعيدا فى مواجهة بصره .. تذكر سلوى .. أحس بوخزة الندم لأنه اضاعها .. ترى ماذا تقول سلوى لو بلغها نبأ التهمة فى القاهرة .. هل تصدق المنسوب اليه .. ام تستهوله ؟ قالت له مرة انها لا تثق فى شرف انسان ينكر الأديان .. فما الذى يعصمه من السقوط .. ما هى القيم التى يتماسك بها ويستند عليها خلقه . كان يحبها بكل مشاعره .. ولكنه كان يفاخر أمامها بوجهات نظره .. اعتقدت فى البداية ان موقفه مجرد نزوة عارضة لشاب تبهره انجازات العصر المادية . وسوف تقنعه الأيام بحاجته الى الله وحاجة العالم اليه .. ولكنها أيقنت فى النهاية بأن ما يقوله يجرى فى دمه . وانه عقيدته النهائية التى لا تقبل المراجعة .. وعندما تقدم يخطبها رفضت بصراحة .. قالت انها لا تجد لديها ما تعترض به عليه بالنسبة للاعتبارات المألوفة التى تهم الفتاة فى شريك حياتها . ولكنها مسألة الحاده .. لا تستطيع أن تواصل رحلة الحياة وهى مطمئنة تماما بجانب انسان لا دين

له . قد يكون شريفا . لكن ما الذى يعصمه من أن يتحول فى المستقبل . مادام لا شىء غير الموت بعد ذلك !!

واندفع يجادلها بأن قيم الانسان يجب أن تنبثق من داخله .. من احساسه بجدواها .. أن يعانيها لا ان تفرض عليه جاهزة من خارجه .. لا لأن قوة ما تريد منه هذا .. وأنها هى بالذات الجامعية المثقفة كان يجب أن تعفيه من توضيح هذا .. ولكنها ركبت رأسها .. عارضت بأنها مسألة لا تتعلق بها وحدها تخص أيضا ما سوف ينجبانه من أطفال .. من جهتها لن تقدم وهى المؤمنة للعالم كائنات ملحدة .. وضاعت منه بعنادها واصراره !!

ما عساها تقول الآن لو عرفت .. هل تصدق التهمة وتردد عبارة كاتبها الروسى « ما دام الله ليس موجودا .. فكل شىء مباح » .

لم يطق البقاء فى النادى وعيون الآخرين ترقبه من بعيد .. والايماءات تشير نحوه .. فصفق لعامل النادى يحاسبه واعطاه الاكرامية كالعادة .. ولم يهتم الرجل حتى بأن يشكره..واجتاحه الألم لتنكر الناس له هكذا بطريقة جماعية .. ونهض يستير خارجا بدون ان يلتفت لأحد .. فى العودة وجد .. الغلمان ما زالوا منهمكين فى تعليق الأعلام والرايات . فتذكر طفولته فى حى السيدة زينب .. كان مولدها أحب الأيام الى قلبه . الألعاب . والزينات . والأنوار والسيرك .. والغرباء .. والدراويش .. وأمه التى كانت تصحبه لتقدم النذور والابتهالات وطلباتها الخاصة من « الست رئيسة الديوان » لماذا مات كل ذلك فى قلبه بعد ذلك .. لماذا ؟ ..

منذ يفاعته ومشكلة الشر فى العالم تشغله .. استهوته دعوات تؤكد بأن تحرير الانسانية من اضطهادها لن يتم الا اذا أيقنت بأن مصيرها فى يدها . وأن الزعم بأن هناك قوة غيبية توجه مصير الانسان خرافة يروجها الذين يصنعون الشر فى العالم . يرهبون بها من جهة . ويخدرون بها العقول من جهة أخرى . وعندما التقى بكتابات الألمانى المتمرد الذى انفق عمره يبشر بـ « السوبرمان » استهوته صرخته الفذة التى قذف بها فى وجه العالم .. « الله .. مات » خلبته الصيحة الجديدة .. بكل جراتها .. اعتبرها المولود الشرعى الذى تمخض عنه رحم العصر الجديد .. ايقن انه وجد طريق الخلاص . ومن هنا . من عندها يجب أن يبدأ !! ..

الخلاص .. ووجد نفسه يتساءل . هل وجد الخلاص حقا .. ما معنى الحياة .. يوجد الانسان . ويموت فما الذى يعطى الحياة طعمها .. ما قيمة ان يكون الانسان شريفا . يناضل ويتعذب من اجل قضية .. ما هى القيمة ما دام من الممكن أن يسقطه البعض . ويرجمونه . ما الذى يعصمه من التمزق .. من أين يستمد العزاء .. اين يجد الخلاص .. الألمانى نفسه مات مجنونا . لم يعصمه « سوبرمانه » من أن يتمزق من داخله وتقرض ازمات العصر نسيج عقله ! .. من بعيد لمح سكرتير مجلس المدينة قادما .. أزمع أن يتحدث اليه . مجرد فرصة ينفصل فيها عن نفسه . الجنون يوشك أن يصرع عقله . ولكنه فطن بأن الرجل يريد أن يتجنبه . تشاغل بالانهماك فى قراءة ورقة اخرجها من جيبه .. لن يفرض نفسه على أحد .. أنه وحيد .. على هذا يجب أن يوطن نفسه نهائيا . وأوشكت أن تطفر دموعه ولكنه قاومها .. مهما يكن فيجب أن يحتفظ بكبريائه .. لن

يرى النــاس نزيفــه .. وواصــل سيره بخطوات مجهــدة . والاحساس بالوحدة يعصر قلبه ..

ــ وحدوه .. وحدوه .. يا خلق الله ! ..

تناهت اليه الصيحة هادرة من خلفه وهو يهم بدخول الزقاق متوجهــا الى مســكنه . اندفعت من فم المتسول الضرير تحت الجدار .. واحس بها تهز قلبــه . ثمت احساس غامض يراوده بأنها تتضمن شــيئا يعنيــه . أيكون العجــوز الأعمى ضــمن المؤامرة ؟ .. ماذا دهــاه .. اهى بداية الجنون . أم هلوســة عقل امرضته الأزمة .. وعــاد العجوز يردد صيحته واهتز قلبه مرة اخرى بشحنة الاحساس الغامضة وهو يدلف داخل بيته . استلقى فوق الفراش بملابسه .. والاعياء يمض جسده .. ضاع كل شيء كل شيء .. القرائن جميعها ضده .. قالها المحامى .. لا فــائدة .. ســيدان .. ويتحطم .. وحتى لن يجد احــدا بجواره .. ماتت أمه .. ضاعت سلوى .. والجماهير تعاديه !!

وانطلق المذيع يتلو نشرة الأخبار .. دوائر العالم تعرب عن دهشتها لاقصاء الزعيم المخلوع . امريكا تواصــل تدخلها غير الشرعى فى فيتنام ... ماوتسى تونج يصرح بأن الصين ســوف تحفر الامبريالية قبرها التاريخى . جنوب افريقيا تتآمر مع البيض فى روديسيا لتظل العنصرية سائدة فى القارة ... واغلق المذيــاع فى احساس بالقرف .. هذا العصر فقد عقله . وعاد يفــكر فى مصيره . هل يمكن أن تحدث معجزة ويحكمون ببراءته . ربمــا يستيقظ ضمير المقاول فيحمل تابعه لأن يعدل عن أقواله ..

ربما .. أو احد الشهود !

لو صدر الحكم بادانته . ســوف ينهى وجوده . سينتحر حتمــا . كيف يحتمل الادانــة وهو البرىء ودفن وجهــه فى

الوسادة يشهق بنحيبه .. وهذيانه .. لا خلاص لى الا بالموت .. ولكنى سأنتقم . الأوغاد . سأقتلهم جميعا . حتى المحامى هو الآخر .. لا خلاص لى الا بالموت . حتى ولو برئت فان الشرخ فى روحى لن يلتئم . التجربة زرعت فى قلبى الحقد نحو الحياة . فقدت بكارة روحى فى معـركة الأحقـاد . وتلوى فوق فراشـه ينادى أمه .. وحيد .. هذا قدره . الجماهير خدعت وتبغضه. لم يرتبط بهـا من البداية .. الآن يدفع الثمن .. ونهض من فراشه وقد خطرت له الفكرة . سيتخلى عن كبريائه ويذهب اليهم ليقنعهم ببراءته . لن يقنط حتى ولو اهانوه .. سيدق على ابواب قلوبهم مهما أوصدوها .. لو اقتنعوا بانه برىء فلن يهمه ان يصدر الحكم بادانته . وخرج الى الشارع ملهوفا بالفكرة . بعد بضـع خطوات عادت الهواجس تراوده . انقضت على الفـكرة تصرعها . لن يصدقوه . لا جدوى . لن يعود الا بهزيمة كرامته والمزيد من احتقارهم .. الموت هو الخـلاص . هذا قراره .. اين يذهب . كل الأبواب مغلقة .. كل المنافذ مسدودة . وهم بالعودة . قبل أن يخطو مستديرا تناهت اليه صيحة الأعمى تحت الجـدار :

ــ وحدوه . وحدوه . يا خلق الله ! ..

توقف يحدق فى العجوز الأعمى .. يقينا راى هذا الرجل من قبل . يقينا .. أين .. ومتى .. من لجة الذاكرة المضطربة تتراءى له صورته . باهتة . ولكنها مؤكدة .. « وحـدوه وحدوه .. يا خلق الله » عاد العجوز يرددها . أهى نداء قـدر يخاطب ضمير العالم كله . أم تراه يطلقها من أجله وحده ؟ .. ابتسم له متوهما أنه يراه .. ثم واصل سيره !!

كان المسجد القريب فى مواجهته فتدافعت نحوه خطواته !!

البــذور والتربــة

وجدها مستغرقة فى الصــلاة عندما دخــل عليهــا تتمتم بالشعائر كأنها فى غيبوبة .. وجهها الى القبلة والمسبحة اليسر بجوارها فوق السجادة المخملية بمحــاذاة ركبتها الساجدة .. نفس المنظر الذى ألفه منذ الطفولة .. لا جديد الا تجــاعيد رفيعة بدات تزحف على محياها الوسيم بدون أن تجور على نضارته .. عيناهــا ما زالت تكمن فيهمــا نفس الحيوية المتألقة بالســحر والجاذبية والغموض .. من أغوارهما مازال ينساب البريق النفاذ الذى كان يربكه دائما ويهزمه .

الكراهية المحتدمة بالغيظ فى أعماقــه بدأ يخبو أوارها . أحس بالصفاء وهو يجلس فى نفس الغرفة التى شهدت أشجان طفولته .. تفجرت فى وجدانه مشاعر مغايرة تماما للأحاسيس التى وفد بها ، ولكنــه قاوم رغبته المتلهفة لأن ينهض ويتعلق بركبتها ويطلق العنان لدموعه .

ما برحت فتية هـذه المراة .. لا تريد أن تهرم أبدا .. يقولون بأنها تنتمى الى طراز شاذ من الاناث يحمل تكوينه خواص خارقة لهزيمة الزمن .

لم تلتفت اليه مباشرة عندما ختمت صلاتها . استغرقت تتلو وردها بنبرات مبتهلة هامسة .. ثم أدارت وجهها الى الخلف والمسبحة بين اناملها :

ـ (اخيرا جئت .. عاد الولد الآبق فى النهاية) نظر الى صورة العجوز فوق الجدار يقول :

ـ (أتجدين فى هذا غرابة يا أمى .. ؟) انفلت نداء الأمومة برغمه . فأشاح بوجهه هربا من نظراتها المدهوشة .

ـ (بالطبع كنا نتوقع مجيئك .. لكن ليس فجأة .. لماذا لم تخبرنا ؟) ..

ـ (تعودت ان اكون المسافر بلا أحد يودعه . والقادم بلا أحد ينتظره) ..

ـ (جئت لأمر ما .. قلبى يحدثنى) ..

ـ (زهقت من الغربة .. وأعادنى الشوق لبلدى) .

نظرت داخل أغوار عينيه .. فأغضى بصره أمام النظرة الثاقبة المتحدية .. هذه النظرات أسلحتها المشحوذة التى تمتلك بها زمام الموقف وأعنته .. نصف عمرى أدفعه مقابل أن تواتينى الجرأة مرة لأصمد لهذه النظرات واهزم سرها .

ـ (لندخل فى الموضوع مباشرة .. لماذا جئت) انتزعته الكلمات المنقضة من داخله .

ـ (نويت أن اتزوج . وجدت فتاة طيبة رضيت بضياعي. أزمعت ان أبدأ معها في رأيهـا ان كل شيء من الممكن ترميمه) .

ـ (وبالطبع تريد نقودا) ؟

ـ (ربما .. ميراثي من أبي) .

ارتبكت تحركات أناملها بين حبـات المسبحة . ولكنها لم تفقد رباطة جأشها .

ـ (انت تعرف انه لم يترك شيئا .. باع جميع ما يملكه قبل أن يموت) ماتت رغبته في العناق اندحر شبق اللهفة ومن جديد بدأت تطفو الكراهية ..

ـ (اعرف . خوفا من الحراسة .. زوجك الجديد أدخل في روعه أن الحراسـة تترصده . فباعها له ولأنصـاره بعقود لا اكثر من كونها وهميـة) .

ـ (هراء .. قبض الثمن باكمله .. ان تساءلت اين النقود فيمكنك ان توجه السؤال لعشيقاته زوجي لم يغتصبها . وزعها على فقراء المدينـة) .

قالت كلماتها بطريقة تلقائية مفعمة بالبراءة .. دائما تملك القدرة على أن تبدو وكأنما هي الشهيدة .. لم يقل شيئا . نظر الى صورة العجوز .. عاد صوتها يثقب قلبه :

ـ (ثمة شائعات تزعم أن زوجي الجديد اغتصبها . ولكنها مغرضـة . دفاتر التوثيق تكذبهـا . لم يبق والدك شـيئا . ومن جانبي لن أعطيك . عندما أموت يمكنك ان تأتي . اما الآن فلا شيء عندي ولن أبيع سهما واحدا . ولدي سيخرج للدنيـا . ولابد من ضمـان يحمي وجوده فيهـا . انت لا تصـدق انني

سوف انجب من رجلى .. تعتقدون بأننى تجاوزت سن الخصب . واصبح رحمى عقيما . اقول لك ولهم سأنجب . الكتب لا تكذب أبدا . الدرويش مسح على بطنى وباركها . قال مكتوب فى اللوح أن النبع لن يجف أبدا .. الغجرية ضاربة الرمل. قالت بأن تربتى قابلة للعطاء أبدا . سأنجب أقول لك هذه المرة نتاج توافق البذور والتربة) .

ظل صامتا فى مواجهتها لم يتفوه بكلمة .. تعتقد انها ستنجب . والشيب وخط شعرها .. من يدرى ربما أنثى غريبة تلك المراة . وخارقة . ربما .. لو فرض وتحقق وهمك يا امراة فسيأتى هذا المولود شاذ التكوين . ضعيف البنية لا .فلتموتى قبل أن تنجبيه .. لا استطيع بضياعى أن أحميه .. سيكون عبئا يضاف الى تراكمات هزائمى فلتموتى ..

ـ (لماذا لا تتكلم . لا تصدق اننى سأنجب . صدق اذن أننى لن أبيع قيراطا واحدا . ما تحدثت به الى صحابك عرفته . تريد أن ترثنى حية . فلا ضمان للغد فى عصر تتراكض تطوراته . تقول بأن الملكية ستنقرض تماما كالديناصور . تريد أن تأخذ حظك قبل أن يأتى هذا اليوم .

انت ترتعب من مجيئه . حتى ولو هفا اليه وجدانك . فأنت تريده ولا شىء لك يحزنك فقده . ولكنى لا أخاف مثلك .

ستظل هذه الأرض فى حوزتى . لو أخذوها منى فستظل تحمل اسمى . أنا مالكتها) .

ـ (أمى .. لست اتسول ولكنى برغم كل شىء ابنك . وأنا الآن ليس لى فى العالم اى جدار استند اليه . مجرد هشيم

تتقاذفه الريح . لم ينلنى من العائلة الا عارهـا مرفوض أنـا من كل الأطراف . الذين عاديتهم يكنون لى الشماتة والذين صادقتهم لا يثقون فى .. أبوا أن يعطونى دورا حاسما .. كانوا يتشككون فى أصالتى .. يروننى مجرد متمرد .. من الممكن أن يرتد ما دام ليس من نفس الطبقة واتهمونى بالرومانسية فى النهاية .. والذين انتمى اليهم بقلبى وبوجدانى يدرجوننى فى القائمـة المعادية لأننى نتاج سـلاله لها فى القهر والظـلم والاغتصـاب تاريخ طويل . رفضونى برغم أننى تعذبت من أجل أن يأتى يومهم .. ولكنى لن اكف عن المحـاولة حتى أجد مكانى بينهم . ساعدينى لأقف على قدمى من جديد) ..

ـ (لا .. انا لا أملك لك شيئا .. لا جـدوى انت تحمل الجرثومة . قد يكون لا ذنب لك فيها .. ولكن الحقيقة انها فى داخـلك) .

تحسس المدية فى جيبه . وحاول أن يجرد نظراته من أن تفضح الكراهية .

ـ (الست من احشائك منسوجا يا امراة ؟) .

ـ (ولكنك بذرته . لا احبها . واحيانا أكره حتى تربتى لأنها فى نوبة جوع تقبلتها) .

(وما ذنبى لتكرهينى . حتى اننى كنت أشـك أحيانا فى انك امى) .

ـ (لم استطع أن أقسر قلبى على محبتك .. نسجتك منى ولكنى لم أعطك عصارتى . جف لبنى بعدما وضعتك .. نسـاء الغجر المـأجورات هن اللواتى ارضعنك .. ورغم هـذا وقفت بجانبك فى معاركك مع العائلة عندما تحديت ارهابها للبسطاء .

وعندما طردك أبوك استجابة لهم . حاولت أن أساعدك فى الغربة سرا . ولكنك رفضت بكبرياء مريضة . واعتمدت على مصادر مشبوهة .. وعرفت معدنك تماما خفت بطش العائلة فهربت . وتركت المساكين يواجهون الارهاب وحدهم) .

ـ (عندما كنت صغيرا كان أبناء أعمامى ينادوننى بقولهم .. ابن الغجرية) .

ـ (أنا أحيانا اتوهم باننى لست أمك .. وانك ابن تلك التى تلقمك ثديها .. الذى سيأتى هو ابنى الحقيقى .. من أحشائى ومن صلب رجل اخترته بمطلق ارادتى .. رجلى الأول فرض على قسرا . كان تاجرا شرها جاء من أرض بعيدة . غريبة .. كبل أبى بديونه . ثم ساومه على أنوثتى . حتى جاء أبوك فقتله . عشقنى فارتكب الجريمة . ولم يجرؤ أحد على اتهامه فقد كانت الدنيا تركع لنفوذه أجهز عليه . ومن قبل أجهضت تاريخه . كل أبنائى منه قتلتهم بطريقتى .. كنت أستهول أن تمتد جذوره هو الغريب مجهول الأصل فى تربة حرة . قتلتهم لأجنب الأرض عار الغريب . ولم استطع أن أرفض والدك . وعدت أن أعطى أى شىء لمن يمحو بصمات الغريب من فوق جسدى .. وعفت والدك من اللحظة الأولى . كان دنيئا برغم جبروته جبانا برغم اجرامه .. كرهته بضراوة . كرهت اغتصابه وجوره وجرائمه .. وأخيرا جاء الخلاص . جاء الرجل الذى كان يدخره القدر .. ليعطينى ولدى) .

جاءت اللحظة الحاسمة أخيرا . ولكنه لن يكون جبانا حتى ينهى الموقف بالمفاجأة .. تعود أن يعطى للخصم فرصته العادلة .. ربما لهذا السبب يتهمونه بالرومانسية ..

ـ (أمى .. ما دمت مرفوضاً من الكل .. ما الذى يمنعنى من ان اكون مجرما ؟) .

لم تهتز .. اندفعت نظراتها تواجهه مشتعلة . ولكنهـا غير وجـلة .

ـ (أعرف أنك جئت لهذا .. الميراث مجرد ذريعـة لتكسب لفعلتك شرعيتها المزيفة .. جئت لتقتلنى أو تقتله .. الذين هزموا من كل الأطراف . يعايرونك لزواجى منه .. الذين لفظتهم . والذين كانوا يريدون لى ان أحبل بالتلاقح .. ولكنك لن تستطيع. لن تستطيع . الودع لا يكذب .. لن أموت قبل أن اخرج من رحمى الغلام الخارق .. ذلك الذى لم تحبل به من قبل امراة . ذلك الذى سيمحو كل عار الأزمنـة .. ولن تستطيع أن تقتل رجلى . البلدة بأسرها تحميه . فقد خلصها من جبروت عشيرتك. أوقف ارهابها . وكسر شكيمتها . وأعاد للناس أرضهم المغتصبة. لن تستطيع أن تقتلنى .. ولن تستطيع أن تناله .. لن تتمكن من أن ترد أعتبارك بالجريمة) .

نهض يتجه نحوها . لم ترتجف وهو يدنو منها والمدية فى يده . لم ترمش عينها باختلاجة خوف . غمس نظراته فى عينيها طافحة بكل احقاد العمر . امتدت يسراه تمسك برقبتها . تلويها الى الخلف .. كان بوسـعها الاستغاثة . ولكنهـا لم تفعل . خرجت كلماتها مكظومة بالحشرجة :

ـ (لا جدوى .. قلت لك . لن أموت . أبدا لن اموت . لن ينالك من المحـاولة الا عارها يا ويلك من الزمن لو عرفوا أنك حاولت أن تقتل حلم الأجيال) .

كاد يهم بأن يغمد السلاح تحت ثديها . الثدى الذى ثمرذ فأبى ان يعطيه قطرة حنان ولكن يده انفلتت من فوق رقبتها .. ترتعش . ثم سقطت السكين مهزومة تحت قدميها .. نظر اليها فارتعد بصره .. ثم انزلقت النظرة الى بطنها .. اخفى وجهه براحته وعاد يرتمى فوق الكنبة . يطلق العنان لنحيبه .

جئت أهفو لأن ارى الدم نافورة يستحم فيها جسدك . فلماذا تتلهف حواسى كلها لعناقك .. كف عن نحيبه ينظر الى بطنها وهى تجلس صامتة قبالته .. طال الصمت ونظراته لا تريم عن بطنها .. قد تكون الأحشاء منك تطهرت . ويخرج بريئا من اللعنة . معصوما من الجراثيم .. ربما تصدق النبوءة .. ربما . ويأتى هذا المنتظر .. يأتى ومعه الخلاص ..

عندما وجدته قد كف تماما عن نحيبه .. نهضت تغمس أناملها فى شعره .. ثم امتدت يدها تجس جبهته .

ــ (مريض انت .. قم لتنام .. سريرك يزل بعد مفروشا) .

لم يجب عليها .. كان تائها فى غيبوبة الحلم يده تطبق على كفها ونظراته عالقة ببطنها !

الأخــرس والــدرويش

عند مشارف المدخل الشرقى للبلدة رأوه قادما ، ذاع الخبر فى كل الحوارى والدروب .. تناقلته الأفواه فى احساس بالهلع . تعودناه نذير شؤم .. دائما تفد بمقدمه الكوارث .. انتشر قلق غامض .. وانداح الاحساس بتوقع المجهول .. ظهر قادما من بعيد ممسكا بعصــاه من الجريد مرتديا عمامتــه الخضراء .. ومرقعتــه ذات الألوان المتعددة الحائلة .. اســتقبله الأطفــال بالتهليــل .. اطلقت الحيزبون بدرب القبــة زغرودة اختنقت بسعلاتها المكروبة .. قبل أن تهم بها صيحات استنكار الرجال . تشربت المسام توجسات الاحساس بهول قادم !!

❋ منذ سنوات كان هنا .. مع الغرباء ومحاسيب سيدى كمال الدين جاء .. طيلة ايام المولد وهو يطوف بأرجــاء البلدة .. ينذر بويل منتظر .. وهول ســوف يعصف بالأخضر واليــابس ويدع المدينــة قاعا صفصفا . عامها التهمت الدودة محصــول القطن ، والبصل أصابه المن الأبيض .. ولم تثمر محاصيل الفول

غير أعشاب الهلوك .. الجواميس نضبت ضروعها .. وفتك الوباء الأصفر بالرجال والنساء والأطفال .. حدث القحط ، وعمت المجاعة وجفت الخضرة ، ظل قبلها يجوس مناكب المدينة ، ومن خلفه ومن قدامه زمرة من الأطفال ومهابيل البلدة تعزف له الضجيج .. وهو يهذى ويتقافز بجسده النحيل ، ويحرك عصاه فى كل اتجاه ، ويتمتم بكلمات غير مفهومة يخاطب بها كائنات غير مرئية حتى جاء يوم انفضاض المولد .. فتصدر باب الضريح يهز كتف كل داخل يتبرك بصاحب المقام .. مطالبا البلدة بأن تتخلص من الرجس العالق بها .. وأن تفتسل من النجاسة وأن تصرع التنين ليأتى موكب الحسين القادم من كربلاء وقد تطهرت الطريق من الافاعى .. والا فسوف يتمدد الشر وينفذ المقدور .. وكل نفس بما كسبت رهينة !!

وها هو من جديد قد جاء .. ماذا يدخر لك القدر فى أحشائه يا مدينة الأحزان ؟

* * *

* قبل أن تأفل الشمس كان قد أتم جولته الملتاثة .. يفرس الاحساس بالخوف .. « قلت لكم يا أبناء الأفاعى سيحل المكتوب .. عندما تزرعون الاغتصاب تحصدون الجريمة . نزف الجسد طويلا .. وأنتم تعزفون لحن التحذير وتحتضنون الغيبوبة وتقتاتون الوهم والأكاذيب . نزف الجسد طويلا .. غدا تخرج الروح وتجرى الفلك الى مستقر لها .. غدا تخرج الروح وتنثال اللعنة .. وعليكم الدم .. زرعتم الزوابع .. فلن تكون فى بيادركم غير الأعاصير .. بنت الحسين غدا تموت .. لكم العار وعليكم الدم !

* بعضنا أراد أن يوقف هذيانه وكاد يهم بالاعتداء عليه ،

والبعض الآخر هــدد ببتر لسانــه « يا غراب البين اذهب .. يا بومة الشؤم أرحل .. » ذهبت المحــاولة ســدى .. سرى الهمس بأنه رجل المخلوقات القادرة .. وسوف تشل كل يد تمتد اليه بالأذى .. بجــانب أن الأخرس الصغير ابن سكينة البلهاء كان قد عبأ جيوبه بالأحجار الصغيرة وهو يتوعد كل من يقترب من الدرويش بشج راســه .. صمت الدرويش بعدها طويلا .. ظل يحدق فى الأفق كأنما ترصــد عيناه تحركات كائنات الفلك .. وفجأة وجدناه يرفع ذيل ثوبه ويأخذه بين اسنانه ويجرى مسـابقا الريح !

* * *

* وجدنا سيدة النعمة مقتولة .. ملقــاة فوق أرضــية ساحة بيتها الكبير والدم يشخب من رقبتها ، والمصحف الصغير فى كفها والمسبحة اليسر تتدلى فوق صدرها .. اهتصر الحزن القلوب ، والعيون منكسة .. الكلمــات تختنق .. تفســيرات كثيرة تدافعت ولكنها كانت تفتقد اليقين .. أتكون قد انتحرت بعد أن يئست من الانجــاب .. وعجزت تعاويذ المتصــــوفة وروشتات الأطباء .. والنذور .. عن أن تعطيها الولد الحلم .. أيكون الورثة قد فعلوها لانقاذ ما بقى لديها قبل أن يبدده الزوج الذى أسلمته المقود والزمام . وانهكها بفرط عافيته .. كلهــا تفسيرات كانت تطفر لتتلاشى .. وتطفو لتغطس .. وبقى الفم . كانت النعمة والبركة . العطــاء والفيض .. المــأوى والستر .. الخبز والادام .. يا لضياعكم معشر الفقراء .. منذ اليوم أنتم اليتامى والمساكين بالروح !

* * *

* عنــدما وارينا جثمانهــا التراب ، رأينــاه تحت شجرة الجميز يملأ الدلو من بئر الجبانة ويفرغه فى حوض السبيل ..

ثم خلع مرقعتــه وتيمم بالتراب بدلا من المــاء وانطلق يصــلّى وبعدها اخذ الأخرس الصغير فى حضنه وهو ينهنه بدموعه . غاب قليلا ثم عاد بوعاء بداخله شجرة صبار وضعه عند سدة المقبرة .

* فى الساحة المترامية المتصلة بديوان داره كان يجلس دائما يستقبل ضيوفه ويعقد صفقاته ويدير شئونه ، تحف به مجموعة من اتباعه ورجاله وأجراء حقوله وخدم بيته .. سيد البلدة ورجلها الأعظم بلا منــازع .. مهيب القعدة عندما يجلس .. شامخ القامة عندما ينهض .. رغباته أوامر .. واشارته قانون .. السعد لمن يرضى عنه قلبه .. الويل لمن يحل به غضبه .. ولكن برغم ما يبدو عليه من مهابة وشموخ فان النظرة الثاقبة النافذة يمكنها أن تنفذ خلف الأغوار لتكشف أن ثمة شرخا فى أعماقه .. وأنه وان كان يبدو متماسكا محتفظا بسمات السيد وجبروته الا أن الداخل يعانى الانكسار .. كان وجودها يضفى عليــه شرفا ومنعة .. فهى بنت الأسياد سليلة العراقة موغلة الأصول .. ومهما يكن من نفوذه وفتوته فهو محدث نعمــة ولكن مهما يكن من أمر فهو السيد بمطلق ما فرضه وارتضيناه !

* * *

* مشهد غريب كنا نراه يوميا منذ ان رحلت سيدة النعمة.. كان الأخرس الصغير يقف عن كثب من الساحة يشــير نحو السيد والجالسين بجواره .. والذين يعبرون الطريق بدون أن نفهم شيئا مما يريد توصيله .. عبثا ما يشير به ..لا مدلول يفهم بالتحديد .. تلميحاته نحوه .. يناديه هو ملاطفا فيتأبى أن يأتى اليه .. يحــاول الاتباع الامســاك به فيركض .. يقولون تفسيرا

لما يحدث منه بأن الأخرس يطالبه بالانتقام لها .. يقولون بأن عدم اقترابه منه معناه انه لن يصالحه حتى يفعل .. من قبل كان مقربا اليه يقتفى أثره . ويكون حيثما السيد يكون وجوده.. وثمة تقولات تؤكد بانه ابوه .. وانه بالبلهاء الجميلة زني ذات ليـلة !!

* * *

* ما كان يخطر ببال احد ما حدث .. جبل الشموخ ينهار مرة واحدة .. تناهت من قبل شائعات عن مرض يفتك به من الداخل .. وانه يحـاول أن يداريه .. فجأة سقط . قلنـا الصدمة أودت به بعدها .. حلت اللعنة بمدينتنا .. الكوارث تأتيها تباعا . والأحزان تلاحقها متوالية . الجثمان تحمله الأكتاف وعلى العيون غشاوة .. والبلدة كلها مناحة .. والأخرس يمضى مع الجثمان عبثا نتواصـل معه .. عبثا نترجم لغته .. يحاول أن يقول لكل واحد فينا شيئا ولكن المشاركة مفقودة .. غمس يده فى وحل الطريق ولطم بها خده مغتاظا من بلادتنا .. ثم امسك بلسانه بشدة محـاولا بتره .. قلنا الكارثة أودت بعقله .. عندما ادخلنا الجثمـان فى فوهة المقبرة .. كان الأخرس يحوم حولنا مشيرا نحوه ويرفع أصبعه تجاه السـماء ولا نفهم شـيئا .. أيستودعه الله .. أم يهدد السـماء لأنها اخذته .. ضغط على شفته السفلى بأسنانه ثم تمرغ فى تراب المقبرة ..

عندما اغلقنا السدة وامتدت الأكف تعزى بعضها من خلال الدموع المنهمرة وجدنا الأخرس ينظر الينا فى غيظ وكراهية . وفجأة تناثرت بصقته على كل الوجوه .. وقبل أن تمتد اليه يد

لتوقف جنونه كان قد طاش صـــوابه تماما .. أخذ يلتقط كل حجر تصـــل اليه يده ليرمى به المقبرة ثم يشـــتد به الانفعـــال فتنهال علينا احجاره .

حاول بعضنا أن يمسك به .. ركض خلفه البعض وكأنمـــا انشقت عنه الأرض ظهر الدرويش بغتة ، كان منزوع العصا وقد خلع مرقعته وكومها فوق العمامة الخضراء .. فتح ذراعيه يتلقى الأخرس الذى كان قد قذف بنفسه بين أحضـــانه .. وركض به بعيدا ، بعيدا ، وغبار الأقدام المهرولة خلفه يفقدنا رؤية الاتجاه الذى سار الدرويش بالأخرس فيه !!

التـــراب

* الحياة تسير فى ايقاعها المعتاد..الزحام .. نداء الباعة.. نفير العربات .. اصوات المـارة .. لا جديد .. بائع الصحف يزعق بنتيجـة مبـاراة الأمس .. طابور الجمعيـة يمتد حتى رصيف « مقهى السمر » فى ميدان الجيزة .. النسـوة يرابطن أمام محل باتا القريب .. على باب المقهى يقف بيومى الصعيدى ماسح الأحذية بصندوقه المعلق بخيط من الدوبارة فى كتفه .. على وجهه ترتسم جهامة حفرتهـا مع الأخاديد المتعرجة سـنوات الكدح والجفاف .. نظراته تتطـاير فى ارجاء المقهى ترقبا لأى نداء .. ليس من عادته أن يقترب من أى زبون الا عندما يطلبـه هو من من تلقاء نفسه ..

إسحاق الجرسون العجوز يغدو رائحا متنقلا ما بين البوفيه والمناضد .. لا جديد .. !! فجأة يقطع جهاز الراديو ارسـاله المعتـاد ليتلو بيانا عسكريا جاء من قيـادة القوات المسلحة .. انتفض الجميع يتجمعون تحت الجهـاز .. تدافع الذين كانوا

يعبرون الطريق . اكتظ المقهى على آخره بجماهير اعطت كل وجودها لصوت المذيع .

« قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقتى الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض من زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة » .

تغير الايقاع المعتاد .. برغم ان نبرة المذيع كانت هادئة على غير العادة . لا تتسم بالانفعال المألوف فى البيانات المماثلة .. للتو تناثرت التعليقات تندد بالانتظار .. الصمود ما جدواه .. طالت سنوات العار .. ليكن الموت ان تعذر الانتصار .. ليكن ما يكون .. بلغت الروح الحلقوم .. ان نسترد الأرض والشرف او فليأت حتى الجحيم ذاته .. القائد وعد بعام الحسم حربا أو سلما . ليفعلها وليكن ما يكون !!

بيومى ماسح الأحذية .. يتفرس فى كل وجوه الناس يحاول أن يفهم ما تعنيه تعليقات الناس من حوله .. يريدون الموت .. وفى كل بيت مأتم .. تركت النكسة فى كل بيت شهيدا وفى كل قلب جرحا .. الحزن يعتصر قلب بيومى .. المخاوف تنداح داخله .. اين انت الان يا محروس .. يا حبة القلب اين انت .. يا ثمن الكدح والهوان والعمر الضائع فى التراب .. خطاب محروس الأخير يقول بأنه هناك .. فى الزعفرانة .. المكان الذى ذكره البيان .. خطابه لم يتحدث الا عن الحنين والأشواق .. وصلابة الأولاد فى خنادق الانتظار .. مع الوعد بتحقيق الوعد .. « غدا تنتهى الحرب يا ابى ونزيح الكابوس من فوق رئة مصر ..

وعلي عيني ما تريده .. سـيكون لك المحـل الصغير .. انت صاحبه .. وترتاح من الدورآن والعناء .. كل أحلامي الا اموت قبل أن أرد لك بعض الدين » .

لا أريد شيئا يا محروس .. لتسلم أنت وكل شيء يهون . كل شيء هان فعلا .. خضت مزالق الطين ولكن صنعت زهرة .. عمري أقطره قطرة قطرة لتسلم لشبابك وتعود .. وتداعت أمامه مسيرة العذاب .. منذ جاء من هناك من الصعيد هربا من الفقر والضائقة .. وشبح الجريمة الذي كان يخايله ليقتل غاصـب أرضه .. بعد ان وضع على ورق البيع توقيع الأب فاقد الوعى وشهادة الشهود من أولاد الحرام .. حرمه من حقه فى الفدان ونصف الباقى من تركة الجدود .. دفعه الأصل لأن يهرب من العار لو قتل شقيقه حتى ولو كان الغاصب هذا الشقيق .. ولم تعطه القـاهرة غير ظهرها .. أكلت العمـارات الجديدة عافيته وهدت حيله .. ولكنه لن يعود للبلده مهزوما .. وواصل الرحلة بصندوق يزيح بورنيشه الأوحال عن أحذية الآخرين .

عاد الناس للجلوس من جديد يلعبون ويثرثرون . ولكن طائر التوقعات يحلق فوق الرؤوس . والهموم تمزق بيومى من الداخل .. تعصره .. والزعفرانة تتمدد فى كل ما يراه .. وكل ما يحسه وكل ما يراوده .. تجـاهل أكثر من نداء .. لا قابلية عنده لشىء .. عندما تكرر نداء الأستاذ عبد ربه متشنجا بالتأنيب لتجاهل ندائه الأول كاد بيومى أن يصرخ فيه .. « اسكت .. ولدى هناك .. » لم يقلها .. قرأها اسحاق العجوز فى نظراتـه الواجفة .. نظر اليه فى اشفاق .. وعندما تلاقت نظرات بيومى بنظراته غير اسحاق من ايقـاع النظرة لينطقها بشحنة تشجيـع متفائلة .. « تلاقى محروس دلوقت نازل حرت فى ولاد الأنجاس.

ندر على يا بيومى يوم ميرجع منصور لأخطب لك بنفسى واحدة زى القمـــر .. ترجـع لك معاهـــا صبونتك يا بيـــومى يا أبو محروس » ..

حاول أن يبتسم لمداعبة اسحاق .. ولكنه فى الداخل كان قد نكأ الجرح المزمن العتيق .. الجرح النازف دوما .. لا يريد أن يلتئم .. على آخر الزمن عروس .. بعد ما ضـــاع الصـــبا وبقيت الأوجاع .. ومن يعوض زهيرة يا اسحاق .. من تستحق قلامة ظفر من أظافرها .. خمسة عشر عاما منذ أن رحلت زهيرة بنت الأصـــول .. الكاملة .. قاسمته الشظف والاملاق بنفس راضية بالمقســـوم .. أعطتـــه فى البداية ولدا .. كان البيضـــة الفاسدة ثم جاء محروس .. نقيا كأصل الجدود .. وبعد سنوات لفظت انفاسها فى ولادة جديدة متعسرة .. وتركته للزمن وحيدا. واعطى لمحروس عمره .. ، كان له الأم والأب والصـــديق .. يحمله منذ طفولته على كتفه فى جولاته بين المقاهى والشـــوارع والدكاكين .. كان الصغير وديعا وطيبا يختلف عن الأكبر الذى عجز عن ترويضه واختطفته.الشوارع صغيرا .. عندما طلب منه محروس أن يشترى له صندوقا وبعض علب الورنيش ليحترف المهنـــة ويســـاعده ضربه يومها علقـــة كادت أن تكسر ضـــلوعه « ستكون شيئا مختلفا يا ابن الفرطوس » .

وما زال حتى اليوم يكره زبيدة داية حارة المنواتى كراهيته للعمى لأنها عرضت عليه أن تشغل محروس خادما فى بيت ســـيدة ثرية .. حدثته عن رغد العيش لمحروس والمرتب السخى آخر كل شهر له هو .. أطل الشـــيطان من نظراتـــه وهو يصرخ فيها .. « ولاد الصعيد يخربشـــون الصخور .. ولكنهم لا يخدمون فى بيوت الأسياد يا امرأة !! » .

توالت الموسيقى وبعض الأغنيات الوطنية .. وقبل أن يكمل المذيع عبارة جاءنا .. حتى احتشد النــاس تحت الجهــاز من جـديد ..

« ردا على العدوان الغادر الذى قام به العدو ضد قواتنا فى كل من مصر وسوريا تقوم حاليا بعض من تشكيلاتنا الجويــة بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى الأراضى المحتلة » .. بعد أن صمت المذيع تأمل بيومى الوجوه من حوله .. قالت كل العيون بأن المسألة ليست مجرد اعتداء عابر أو الرد عليه .. يبدو أن المسألة أبعد من هــذا .. قلبه يرتجف .. محروس هناك هل يعود .. تذكر كلمــات ولده .. « لو خضنا الحرب هذه المرة فسوف ننتصر يا أبى .. الوضع يختلف تماما .. علمتنا التجربة. راح عصر الهوجة والهرجلة كل شيء بحساب وتخطيط » .

واغرورعت عيناه بدموع كان يحــاول أن يعقلها فى قلبه .. يحفظك الله يا ولدى لشبابك .. خمس سنوات وأنت مع زهرة شباب مصر بين الخنــادق فى الهجير واللظى والرمــال وعـذاب الانتظار .. وقلبى أنا فى كل يوم يموت ..

غادر المقهى يتجول فى الشــوارع .. تعصف به المخــاوف والهموم .. رأى تجمعا عند بائع العصير .. ركض يلتقط الأخبار الجـديدة ..

« الحاقا للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجــاح وأصابت مواقع العدو باصابات مباشرة . وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمــة عدا طائرة واحدة » .

« دخلنا فى الجد يا رجال » .. قالها أحــد الواقفين .. فجرت كلمته الاحتمالات والتعليقات .. جاء اليوم .. جاء ..

من بشر باليوم الموعود صدق .. القائل بالحسم ما كذب .. عندما انجاب الضباب فعلها .. مصر هكذا تصمت حتى يظنونها خرست .. مصر هكذا .. تصبر حتى يتوهمونها ماتت .. وعندما تنطق تفجر الرعد .. تقذف الحمم .. عندما تتحرك تقهر المستحيل .

« نحن على استعداد لأن نموت جميعا وتحيا مصر » قالتها تلميذة ترتدى مريلة زرقاء وتحمل حقيبة كتب فوق صدرها .. ابتسمت الوجوه .. أضاءت .. لم يبتسم بيومى .. نفذت التعليقات داخل وجدانه .. وضعته فى مواجهة الخطر وجها لوجه « نموت جميعا وتحيا مصر » قالتها الصغيرة .. أموت أنا الف مرة من أجل مصر .. ولكن محروس يعيش .. أنت الحلم .. والعمر .. ماذا يبقى .. الآخر اخذته الجريمة وضاع فى الليل والسوابق والسجون .. باع أصوله .. انت ابن الأصول .. كان هو بخة الشيطان وكنت أنت نخوة الجدود ..

عاد الى المقهى من جديد .. أغرق عذاباته . حاول ان يغرقها فى دهن الأحذية .. عبثا .. محروس والزعفرانة والخوف من المجهول ..

توالت البلاغات .. كل بلاغ قبضة تعتصر القلب من جديد .. أحس بالخزى وهو يرى توهج الحب لمصر فى عيون الجميع .. كل هؤلاء الذين يتجمعون عند الراديو لهم فلذات أكباد هناك .. وأشقاء وأقرباء . لماذا انت وجدك الخائر المنهار .. الم تنجب مصر فالحا . غير محروس وحده .. من أدرانى .. ربما كانوا من الداخل مثلى ينزفون ويتذكرون الوطن وحده . ثم هل دفعوا فى أولادهم الثمن الذى دفعته فى محروس ؟ تذكر كلمات محروس عندما حدثه عن مخاوفه بعد أن تحدث القائد عن

عام الحسم سلما او حربا .. لحظتها عذبته كلمة الحرب .. قال له الأصيل ابن الأصول : (لو فكرنا بهـذا المنطق يا أبى ما كانت مصر هى مصر .. ما أعطى لمصر استمرارها انها كانت على الدوام تذب عن حياضها بالدم جيلا بعد جيل..ان كل فرد فينا لا يخص ذاته بقدر ما يخص وطنه » لم يفهم الكلمات وقتها .. ولكنه أحس بصدقها وتعبيرها عن الحقيقة .. وفى نفس الوقت لم يستطع أن يتهم عواطفه هو بغير الحقيقة ايضا .

ونظر من داخل المقهى الى عربات تمرق فى الشوارع يقودها شبان آخر الزمن أصحاب الشعور المتهدلة والسلاسل المدلاة .. حدث نفسه لمـاذا لا يجمعون هؤلاء الخنافس ويدفعون بهم الى الجبهة .. لمـاذا يدافع محروس ابن حارة المنواتى الذى طفح هو الدم من‌أجل أن يعطيه دبلوما .. لمـاذا يدافع عن هؤلاء .. لو كان محروس الآن بجواره لوجه اليه السؤال .. أتراه كان سيعتبر هذا المنطق خاطئا ايضا !!!

* اجهضت كل الاحتمالات .. أسفرت الحقيقة عن وجهها انطلق البيان الحاسم ..

« نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السـويس فى قطاعات عديدة واسـتولت على نقط العدو القويـة بها .. ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة » ..

لم تنتظر الجمـاهير تكملة البيان .. ، زارت الفرحـة .. عبرنا .. عبرنـا عانقت القلوب القلوب .. احتضنت الدمـوع الدموع .. انثالت كلمات من وجدان مصر .. عادت الروح .. الروح عادت .. اقتربت الساعة وانشق القمر انتقلت الى بيومى عدوى الفرحة .. لو طاوع رغبته لصرخ فيهم جميعا .. ابنى اللى عبر .. محروس هناك .. ولدى .. ولكنه كظم الرغبـة

المتلهفة . لكلّ منهم ما يخّصه هنــاك .. ليس محروس العــابر وحــده ..

شق اسحاق الجرسون العجوز طريقه بين الجماهير الى حيث يقف بيومى .. عانقــه .. « محــروس عبر يا بيومى .. محروس فى سينا يا أبو محروس » قالها وعاد الى الداخل ينزل صورة القائد من فوق الجدار .. لوح بها للجماهير التى هتفت بالنصر .. أعادها الى مكانها ..

اشتاق بيومى أن يذهب الى غرفته فى حارة المنواتى ليعانق صــورة محروس فوق السرير الجريد .. حياة جديدة تولد فى الحــارة .. زغاريد تستقبله عندما أهل فى مدخلهــا .. نفس الزغاريد التى انطلقت بالفرحة يوم أن نجح محروس فى دبلوم التجارة .. يومها وزعت الحــارة الشربات تكريما لبيومى الذى انجب مثل اولاد البهوات ..

لقيه أشرف صديق محروس يعانقه بالفرحة ويقول .. ادفع كل عمرى لأكون هناك الآن بجانب محروس يا عم بيومى .. لم يأخذونى .. تذرعوا بقلبى المريض . وحرمونى من لحظة العمر . أخرجونى بعد عام من التجنيد قلبى ها هو يزأر مثل الأسد ..

دخل الى غرفتــه ودفن وجهــه فى كل ما يخص محروس واطلق العنان لدموعه .. عندما خرج الى الحارة وجد الصغــار يطوفون فى مواكب .. بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى .. مصر يا أم البلاد .. انت غايتى والمراد .. قال له كمال الحلاق .. الولاد طلعوا رجالة بحق وحقيقى يا بيومى .. رفعوا راس مصر قال آخر كان يعبر الحارة « الواحد منا ما يستحقش يمسح تراب رجليهم » .

اغمض بيومى عينيــه غى منظر أولاد مصر .. على منظر محروس يغوص معهم فى وحل الخط المنهار .. رآهم من بين الجحيم والخطر يغرسون العلم .. لم يستطع أن يكتم انفعاله قال يشهد الحارة من رجال ونساء واطفال وهو يشير الى صندوق الورنيش فى يده .. « وتربة زهيرة يا ناس لمـا العيال يرجعوا بالسلامة لأمسح جزمهم بنفسى .. أيوه جزمة محروس الميرى لازم امسحها بنفسى . أنا أبوه ... » .

لاح له وجه محروس يعترض .. لم يعطه الولد الفرصـة أبدا ليفعل .. هو الذى يمسح احذية كل الناس .. كان الأصيل يجدها عيبا أن يمسح الأب حذاء ابنه .. برغم أنها مهنته .. « العين لا تعلو على الحاجب يا أبى » أكد فى سريرته بأنه سيفعلها هذه المرة .. بنفسه سيمسح حذاء محروس الميرى .. « ليس من أجلك انت هذه المرة يا ولد !! » .

البلهارسيا

اجفلت عندما واجهت الميدان والقيت نظرة .. اطبق الانقباض على صدرى . اكوام من البشر .. اجساد تتدافع . مناكب تتصارع .. زعيق وخناقات وشتائم !

من المستحيل ان اجد لى هنا موضع قدم .. لو كانت المسألة مجرد طوابير كنت انتظر دورى والاحتمال .. ولكن فى هذه المعمعة .. لا قبل لى .. يوم حشر بلا مبالغة امام الجمعية .. يوزعون اليوم الفراخ والأسماك المجمدة .. عندما تذكرت الخيبة التى سترتسم على وجه زوجتى لو عدت ويدى خاوية .. تعذبت مشاعرى .. لماذا جاء اليوم عيد ميلادك يا صغيرى .. ماذا أقول لزوجتى .. سأحرجها فى المساء أمام الأقرباء الذين دعتهم . هذه أول مرة نحتفل فيها بمولده .. مر بظروف مرضية صعبة خطر لنا هذه المرة ان نفرحه !! لم اجرؤ على الاقتراب . وقفت من بعيد .. احمل قلبا مريضا .. لو لكزنى احد هؤلاء المتصارعين بكوعه .. سوف يصمت نبضه ..

المنظر يشكل لوحة هستيرية بالغة الغرابة .. مغرقة فى لا معقوليتها .. ملاءات وجلاليب وشفالات صغيرات مهروسات بين الزحام والأقدام .. صراخ ومشاجرات وكرتونات مكتظة تحملها أذرع مدربة تخرج بها من بين الزحام .. تختفى بسرعة ويعود الذين كانوا يحملونها بسرعة .. من جديد .. وبلطجية المنطقة .. هم أسياد اللحظة !!

الأمر لله يا صغيرى .. ما باليد حيلة .. استدرت لأعود.. وأنا اعترف بالاحساس بالعجز .. وجدت يدا تخبط فى غير عنف على كتفى .. وجدتنى أمامه وجها لوجه .. محمود عبد الحق .. جارنا من الصعيد .. وصديقى القديم . عقدت الدهشة لسانى يرفل فى الوجاهة . منذ سنوات بعيدة .. لم أره .. وانقطعت عنى أخباره .. فصل من مدرسة الزراعة عندما فشل فى الحصول على دبلومها .. هذا آخر عهدى به .. لم يكن غبيا .. كان يقول لنا بأنه لم يخلق للتعليم .. كانت أحلامه تتركز فى عربة نقل يسوقها سألنى عن سبب وقوفى هنا .. حكيت له .. ابتسم .. بسيطة .. معى كرتونة وأشار الى رجل ريفى يحملها وقد سبقه فى المشى .. خذ ما تريد منها قلت لا أريد غير واحدة .. اعترض خيرك علينا يا عبد .. هدية منى للصغير .. أصيل والله يا محمود. لم تنس .. علبة سجائرى كنت تدخن أغلبها .. حسابك على مقهى هريدى كنت أدفعه .. والثمن .. خفة دمك .. ونكاتك التى تضحك طوب الأرض .. وفهلوة تصرفاتك التى كانت تعطى الطعم لأيامنا المقفرة فى الصعيد .. طلب منى أن أذهب معه الى البيت .. مجرد خطوات .. فليس من اللائق أن نفتح الكرتونة على قارعة الطريق .. عيون الخلق تنفث السموم !

أذهلتنى الشقة التى يسكنها فى عمارة التأمين .. وهو يقدمنى لضيوفه .. عمدة وبعض الأعيان . وصراف القرية .

ومشرفها الزراعى .. حدثهم عن ذكائى الخـارق وموهبتى .. والقصص التى كنت اكتبها .. قال لى بانه يتابع ما اكتبـه .. كنت ذاهلا تأخذنى روعة المكان .. وفخامة الديكور .. ومحمود يحدث ضيوفه عن عبقريتى المبكرة .. وثقافتى .. وفرط نجابتى منذ الطفولة .. لو رأيت القبو الذى اسكنه بعد ربع قرن من خربشة الصخر فى جبال الكلمـة .. بالتأكيد .. كنت تسحب احترامك هـذا يا محمود ! من أين لك هـذا .. زادك الله من نعيمه . عمى عبد الحق المكوجى . لم تكن له عمـارة .. ولا كانت له ضيعة .. هل اصبحت رئيس مجلس ادارة .. لو طاوعت فضـولى لسألت .. ولكنى اتذكر الحكمـة .. ملك الملوك اذا وهب .. لا تسألن عن السبب !

خرج محمود ثم عاد بلفة تحمل ثلاث فراخ مثلجة .. عندما رأى يدى تزحف نحو جيبى أقسم بالطـلاق أنها هدية للصغير .. استأذنت الأزف البشرى لزوجتى نهض يودعنى وعند الباب طلب منى ان اكرر الزيارة .. لاحياء الصـداقة القديمة وان احضر المدام لتتعرف على حرمه .. ولنتفق على يوم فسحة فى القريـة التى يعمل بها .. وهى غير بعيدة .. كنت قد عرفت من خـلال الحديث مع الضيوف انه كاتب حمعيتها التعاونية !!!

خرجت الى الشارع مذهولا بالمفاجأة .. سعيدا باللفة .. ولكن اسم القرية كان يتقافز امامى..ليس غريبا على هذا الاسم. تذكرت .. منذ مدة قرأت احصائية اصدرتها هيئة طبية عالمية.. تؤكد بأن هذه القرية من اخطر مناطق توطن البلهارسيا فى المناطق الحارة .. غامت الدنيا امامى .. لاحت لى وجوه فلاحيها شاحبة

صفراء .. تراءت لى أسراب الديدان تزحف نحو اجســامهم. وتخترمها . توهمت أن هــذه الديدان قد تنامت . وتضخمت وأصبحت فى حجم الثعابين .. وأن وجه محمود عبد الحق .. والوجوه التى رأيتها فى ردهة بيته كانت اضخم هــذه الديدان حجمــا .. واشــداها ضراوة وارتجفت .. سرت فى جســدى الرعشة .. واللفافة فى يدى تقطر ماء .. أراه دما !!

أغنيــات حزن وحــلم

قــابيل يخنق القمر (*)

يوحنــا يبشر فى الحانــة

الســاعة الـ ٢٥ !

(*) كانت هذه القصة قد نشرت فى مجموعتى القصصية « للكتاكيت أجنحة » .. واذا كنت هنا قد تعمدت اعادة نشرها فلأنها مع قصة « يوحنا يبشر فى الحانة » وقصــة « الساعة الـ ٢٥ » تمثل عندى وحدة رؤية فنية كانت « قابيل يخنق القمر » أول أضلاع مثلثها .

قابيــل يخنــق القمــر

بالأمس كان القمر مختنقا فى سماء مدينتنا . من فوق أسطح البيوت .. فى الدروب الضيقة والأزقــة المعتمة انطلقت مواكب الأطفال تقرع الصفائح القديمة وآنية النحاس تناشــد « بنات الحور » أن يطلقن سراح القمر ، وظل القمر مخنوقا برغم ضراعة الصغار . ونواح الصفائح كصلوات بدائية لاله مات قلبــه . وتذكرتك انت . تذكرت سخريتك من جدتى . ومن المقــدس دانيال شماس كنيسة « السيدة دميانة » المجــاورة لبيتنا .. تذكرتك وكتــاب الجغرافيــا بيدك .. تفسر لنا ظاهرة خسوف القمر .. والجدة تشتمك فى حب وتلعن المدارس التى تلقنك هذا الكفر .. وتعلمك الكتابة من الشمال لليمين فى آخر الزمن كان رأيها أن « بنات الحور » هى اللواتى يخنقن القمر انتقاما منه لأنه يتأبى عليهن .. أما المقدس « دانيــال » فقد كان يؤكد لنا بأن « قابيل » هو الذى يخنق القمر انتقاما منه لأنه أضــاء الصحراء ذات ليلة وكشف جثــة « هابيــل » لعيون الغربان التى نعقت وانقضت تنهش فيها وبذلك أيقظت الملائكة فوشت به لآدم تذكرتك

ونمت .. فى نومى رايت حلما .. رأيت يدك تطبق على عنق القمر لم أر وجهك كان مختفيا وراء سحب داكنة ولكنى أعرف يدك . أصابعها . عروقها . والوشم فوق الكف اعرفها يدك .

ماتت جدتك منذ أيام . قال الناس بأن جثتها طارت بالنعش من فوق أكتاف المشيعين . لم استطع تكذيب الخبر . لأنى لم اسر خلف جنازتها .. تخلفت أفتش فى حاجياتها . واستبحت لنفسى مسبحتها اليسر ذات الرائحة العبقة بما يشبه رائحة الكافور .. وتراب المقابر والأضرحة .. وخرجت والمسبحة فى يدى أطرق باب بيت المقدس دانيال أعب مجانا من خمره المعتقة التى يجلبها له صديقه المبشر الأمريكي من كروم يافا والجليل .

منذ ساعة عدت من بيت دانيال وما زالت أبخرة العرقى فى دماغى .. ووهجه فى عروقى . بينما تجرفنى مشاعر تواقة بشبق لأفرغ لك كل الأشياء التى تلهث داخلى . كما كنت أفعل أيام كنت تسكن نخاع عظامى .. عندما كنا نعيش فى كنف أسرة متماسكة . نغنى فى مواسم الحصاد .. أبى وأمى . والجدة . وصابرة والضيوف الذين كان يصطخب دائما بهم بيتنا الكبير العتيق بطوابقه . ودهاليزه . لم يعد الآن يطرق بابنا أحد .

فمنذ سنوات والمرحوم والدك لم يعد هو العمدة .. بعد افلاسه مباشرة جاء المأمور ومعاون البوليس والمشايخ . ونقلوا التليفون الى بيت العمدة الجديد فى مشهد أشبه بالفضيحة ..

زمان كانت مواكب الحكام ورجال الدين تتجه الى بيتنا وتقتعد الساحة تحت شجرت التوت .. شجرة التوت ما زالت راسخة .. تسخر من مياه الفيضان التى تلطم ساقها فى عناد .. كنت أعشق النهر حيث كنت تجذبنى عاريا لتعلمنى السباحة

داخله .. وغرقت منك ذات صيف . وعندما انتشلني الصائد العجوز . قلت لي بعد أن أفرغ المياه من جوفي .. بأنني لو كنت ضعت منك في جوف النهر لأشاع الناس الأقاويل وتكرر اللغو حول قابيل وهابيل ولم أفهم ما تعنيه .. كنت اعرف الحكاية بالطبع . قرأتها في كتاب المطالعة ولكني لم أفهم صلتها بحادث غرقي .

نسيت انا هذا الحادث تماما .. لولا أن ذكرني به الصائد العجوز .. رأيته منذ عام يتسول على قارعة الطريق وقد فقد بصره الرؤية . وعرفني عندما تحسس يدي . ثم قال لي بأنك كنت تستطيع أن تنقذني قبل ان تبتلعني المياه ولكنك تركتني اغوص بدون أن تفعل شيئا . لولا أن جاء هو بقاربه في اللحظة المناسبة .. عدت يومها الى البيت استعيد ملابسات الحادث . وفي الليل رأيت حلما رأيتك بجواري تقرأ لي قصة هابيل وقابيل في نسخة مذهبة من توراة قديمة وقد نمت لك لحية كثة .. وتلبس قفطانا فوق البنطلون . وطلبت مني بعد أن فرغت من القراءة بأن لا اصدق الحكاية .. المسألة بحذافيرها مجرد خرافة .. ليس هناك قابيل وهابيل .. لأن آدم لم ينجب اطلاقا . كان عقيما وأن « هيروديت » اليوناني قد اخترع الحكاية من خياله .

وصحوت بعد كلماتك مباشرة .. كان حلماً .. انت في القاهرة .. وانا في الصعيد .. اتذكر يوم ان جئتك في القاهرة .. لم استطع أن اغلق قلبي دون توسلات « صابرة » من المستحيل أن تقتلع رياح الزمن ذكرى هذا اليوم من نفسي .. استقبلني بفتور .. تجاهلت ذراعي الممتدتين لاحتضانك .. سألتني زوجتك قبل أن يقدم لي الخادم كوب الشاي عن الفندق الذي نزلت فيه غامت الدنيا امامي . وابتلعت ريقي أجيبها بأني سأنام في رحاب « الحسين » فعجائز بلدتي حملوني قراءة الفاتحة في مقامه .

ونظرت اليك لأرى وقع سؤالها . لم المح اى تعبير يشى بالدهشة .. فنهضت بدون أن أتحدث اليك فى مسألة صابرة .. ولبثت أسير فى شوارع المدينة مذهولا ينتهبنى الضياع .. سألت رجلا عن الطريق الى المحطة فقد فقدت قدماى الطريق .. تفرسنى الرجل طويلا .. كانت ترافقه فتاة بيضاء مذبوح قلبها فى عينيها. ثم امسك بيدى وقبضته الأخرى على رسغ الفتاة .. وسار بى داخل دروب متعرجة .. وفى زقاق دامس الظلام شهر سكينا فى وجهى واغتصب كل ما فى جيبى .. ناشدته الفتاة أن يدع لى ثمن التذكرة فلطمها على وجهها .. فركعت تحت قدميه تضرع اليه ان يبقى لى أجرة العودة فى مقابل ذلك تتنازل عن حصتها من عملية الليلة .. وأعطانى ثمن التذكرة وانطلق بالفتاة وتركنى ..

اجتاحنى الخوف فاندفعت اجرى ملتاثا . مهبولا . وعندما قابلت رجل الشرطة ارتميت فوقه أخبره بحكايتى فانطلق يقهقه فى جنون .. سألنى ان كنت من الصعيد .. وعندما أجبته زادت عربدة ضحكاته « قريب لك اشترى الترام من قبل » ثم ابتعد عنى وغاب فى زحام الميدان ..

تساءلت يومها وأنا اتجه الى المحطة بارشاد بائعة الخبز الصغيرة . ما الذى جعل « ابراهيم » هكذا فرغم أننى كرهتك بضراوة .. لم أكن مستريحا لقرار ضميرى بادانتك .. كثيرا ما فكرت بأن كل مخلوق له الحق فى أن يتصرف بما يروقه .. وأن اى انسان ليس ملتزما قبل الآخرين بشىء . ومن الحمق أن ندين أحدا بشىء خارج ذاته .. لكل انسان حياته وله مطلق الحرية فى أن يجدف لسفينتها فى الاتجاه الذى يعتقد انه الصحيح. وان الآخرين الذين يحملون تعاسة الانسانية فوق كواهلهم نماذج شاذة .. ما زالت تحمل رواسب اعوجاج ما فى تركيب التاريخ.

وعدت انا لأتزوج صابرة .. فقدت هى الأمل فى عودتك ..
أجهضت لها القابلة الجنين برغمها .. كانت تتمنى أن يبقى لها
فقد نسجته من صلبك . حاولت ان ابث فى قلبها الكراهية لك
وفشلت . مازلت تعيش فى دمهـا .. ولم استطع انا ان أقسر
نفسى على كراهيتها .. دائما دافئة . وحلوة .. فى قلبها نبع من
الحنـان لا يغيض أبدا .. يلوح لى أن هـذا النبع وجد ليروى
آلاف الرجال بل آلاف الأجيال الى أن تنتهى الدنيا ومن عليها ..
انها تعطى دائما بقابلية غريبة ولكنك مازلت تفصلنى عنها .. عن
النفاذ لروحها .. انها تدخلنى اغوار أنوثتها ولكنهـا تلفظنى الى
السطح كلما حاولت الاستيلاء على روحها .

قالت لى منذ أيام بأنها لا تصدق انك شرير الى هذا المدى.
كنت ساعتها احدثها عنك . وأتساءل عن السـبب الذى جعلك
شريرا برغم انك لم تهزم من احد وليس العـالم مدينا لك بأى
صفعة .. قالت لى بأن الغـائب حجته معه .. وأعطتنى ظهرها
ونامت .

فى الصباح سألتنى .. لمـاذا أبيت أن أفضحـك ما دمت
اكرهك الى هذا الحد ولم أستطع الاجابة حتى بينى وبين نفسى
انا انسان يفتقد القدرة على فهم نفسه . مرات كثيرة أبكى عذاب
العالم . واجدنى مستعدا ان احتضن الموت فى سبيل أن لا تذرف
عين انسان دمعة .. عندما كنت صغيرا .. تقرأ لى أنت قصصـا
يتعذب أبطالها .. كنت أتمزق حزنا . وأنا أعدهم فى سريرتى بأن
أكون مسيحا من طراز جديد ينتقم لكل تعاسات الأزمنة . الآن
مازلت أعانى من هـذه الأحاسيس ولكن فى نفس الوقت تخطر
لى أفكار مغايرة .. مرات كثيرة عندما أواجه ضراوة الناس أجد
نفسى مستعدا لكراهية كل شىء . وأتمنى لو تتاح لى الفرصـة

لأنسف العالم كله واذروه هشيما .. قلت هذه لصابرة فى المساء عندما عاودت سؤالها .. فجاوبتنى بالصمت .

منذ شهور مات والدك منتحرا .. خسر كل ثروته .. وعرفنا عذاب الاحساس بأننا اصحاب نعمة زائلة .. وانفض الناس عنا . ولم تعد « مندرتنا » مليئة بالضيوف من كل فج عميق .. لم يعد يطرق بابنا من الغرباء غير المحضرين .

مات تاجر القطن المفلس بدون أن يعرف سر خرابه . انا أعرف . وأنت .. أعرف سر تآمرك مع السماسرة نظير عمولة ضخمة .. فكرت يومها أمام رهبة الحادث ومضاعفاته .. أن أفضحك ، أن أوقفك عاريا وأرجمك . لم أستطع .. رفضت الفكرة باحساس سجين يعرف أن القضية التى يتعذب من اجلها زائفة ..

كان الصمت يمزقنى من الداخل فلا اجد خلاصا غير ان اطرق باب دانيال ليفرغ فى جوفى كئوس العرقى . وعندما تنفذ الخمر داخل دماغه ينطلق يتحدث عن المسيح ويهوذا ويترنم بمقاطع من المزامير ويهذى بكلام غريب عن شجرة التين التى أورقت وعن قارورة العطر التى دهنت بها الخاطئة قدم الانسان الذى طوب المسكين بالروح فساقه التجار فى موكب الحقد نحو الصليب . وعن المطران الذى رسم سمعان النجار قسيسا لكنيسة العذراء نظير ثلاثة خرفان وعشرة ديوك . وتجاهله هو الأرثوذكسى خادم الكنيسة القديم . ثم تجرفه نوبة البكاء وتتشنج أعصابه ويقذف بى خارج بيته .. لأجد صابرة فى انتظارى .. صابرة انها عذابى . هى الأخرى معذبة بشىء ما فى تكوينها .. انها تعطى نفسها بحنان أنثى تذوب فى جسدى . ربما فى جسد

الانسانة كلها . كما يلوح لى .. ولكنها غريبة عنى .. روحها تحلق بعيدا .. دائما أشعر بها هاربة منى .. روح صابرة ..

أحيانا تقول لى بأنها تكرهك الى حد الموت .. واعرف أنهـا كاذبة .. انها مستعدة أن يقطع جسدها اربا فى سبيل أن تراك لحظة . أن يهصرها ذراعك أن يمتصها فمك . أن تشربها مسامك. عذاباتها أيضا تمزقنى .

عندما مات والدك قالت لى أمك .. ان كل شىء يموت . لكن الحياة تتولد من جثة الموت فلا شىء يموت أبدا .. فهمت انها تحرضنى لأنجب من صابرة . قلت لها ان قابيل لم يقتل هابيل فحسب قتل العائلة كلها . قتل حتى نسلها فى الغيب ... كان فى خاطرى أن صابرة لم تتقبل احشاءها بذورى . نبـات الأرز لا ينمو فى خط الاسـتواء .. وفهمت امـك .. ولم تقل شـيئا ..

ليست خمر دانيال هى التى تدفعنى لهذه الثرثرة .. زمان عندما كنت أسمع الحواديت الخرافية من المقدس دانيال وجدتك. عندما كنت تصحبنى الى سينما البلدية فى المدينـة المجـاورة لأشـاهد معك « أفلام طرزان » كانت تنمو فى داخلى اشـياء غريبة .. كنت احلم بعالم لا ناس فيه .. انا وحدى .. وحـدى لا غير فيه وكنت أخرج من حصص الدين فى المدرسـة لأهرع الى المقابر شرقى المدينة واطلق العنان لأفكارى أتأمل الخليقـة .. والعالم وقصة وجودنا على الأرض .. كنت ارتبك احيانا وأتوه وانا ادخل فى حوار ساذج مع أشباح غير منظورة . وبعدها أحاول أن اقنع نفسى وجماجم الموتى تحدجنى من المقابر الخربة . بأن الوجود والمدرسة . وبيتنا . ومحالج القطن . ومآذن المساجد وقباب الكنـائس والمقابر .. كل هـذه اشياء لا وجود لها فى

الحقيقة . انها توجد فى داخلى فحسب . لا وجود لغيرى أنا . وعندما أموت تموت كل الأشياء معى وربما أكون أنا العالم . من ادرانى .

قلت هذا لصــابرة بالأمس . لم تقل شيئا فى البدايــة . وعندما أعدت الكلمات امتدت يدها تجس جبهتى .. ثم قالت لى انت مريض . قلبك يختنق قم معى الى السطح لتشم الهواء .

وجدنا الظــلام دامسا فوق سطح بيتنــا لم نجد القمر فى السماء . وانطلقت نظرات صابرة تبحث عنه خلف السحب وهى تقول لى .. مضى يوم بدون أن يظهر القمر بنات الحور مازلن يخنقنه .. أجبتها .. ربما لسن بنات الحور . ربما يكون قابيل هو الذى يخنقه . ثم طلبت منها أن توقد شــمعة ريثما يعود القمــر !!

يوحنا .. يبشر فى الحانة

توقف عن كثب من الحانة ، ينفض قطرات المطر عن شعره المتهدل ، لايمكن بسهولة تحديد العصر الذى ينتمى اليه طراز ملابسه . وجهه هو الآخر لا جنس له ، ولكن نظراته الكاسفة الثملة تطل منها جهامة تختلط بخيبة أحلام امريكى قديم ..

قذف قشرة موز بقدمه ثم امتدت يده اليمنى تسند قلبه وقد جحظت عيناه وأطلت منها أعماقه المخمورة وهو يحنى قامته ويتقيأ من بطنه سائلا أصفر تتشابك به خيوط الدم وشرائح الرنجة . قذفه صاحب حانوت الخضراوات بجزرة معطوبة واختفى داخل الحانوت . ورسمت الراهبة التى كانت تطل على الميدان علامة الصليب وأغلقت أضلاف النافذة !!

استرد العجوز أنفاسه واخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من انفه يشمها . ابتلع منها جرعة فتزايدت كآبة الثمل فى عينيه. ثم سحب من تحت ابطه توراة قديمة مغلفة بجلد الماعز واخذ يقرأ فيها بلا صوت وهو يترنح والكلمات تلهث داخل حلقه !!

« يوحنا يصلى من أجل العالم !! » قالها الزنجى الفارع القامة لرفيقته الشقراء ودلف داخل الحانة .. اغلق العجوز كتابه ثم تحرك من فوق الرصيف يحدق فى المارة يشير لهم بأصابعه الى بعيد ، البعض كان يومىء له بالتحية والبعض يتجاهله ، والصغار يقذفونه بنكاتهم وتنطلق قهقهاتهم نزقة ثم يواصلون المسير !!

اللعنة عليك يا « أورشليم » قذف بها فى وجه المدينة ثم جلس فوق الرصيف يفتش فى جيوبه أخرج الورقة البنية الممهورة بخاتم وزارة الدفاع وفردها يتأمل فيها ببلاهة وعليها تتساقط دموعه .. « ريتشارد .. مات يا جدة .. الفيت كونج قتلوه فى الغابة » ولوح بالورقة تجاه العجوز وقال .. « مكنمارا يقول انه مات من أجل شرف أمريكا .. » توقفت العجوز لحظة ، ثم أخرجت من جيب معطفها الداخلى ورقة مماثلة ، ونظرت اليه والى الزجاجة بجانبه . ومضت فى طريقها تصفع الأسفلت بخطواتها اللاهثة .. اقتربت مجموعة من الغلمان متدلية شعورهم على جباههم وأقفيتهم .. فترك العجوز الزجاجة والتوراة على الرصيف ونهض يعترض طريقهم ..

« ريتشارد مات يا عيال ، معبود هارلم الأبيض .. بطل الرجبى الصغير .. معشوق فتيات الجامعة الأنيقات أخذه الجنرالات وأضاعوه فى الأرض البعيدة .. حتى جثته لم يعيدوها الى يا عيال » .

تدافعت قهقهات الصغار .. ومد أحدهم يده يداعب ذقن العجوز . وخطا آخر الى الرصيف وجاء بالزجاجة يفرغها فى حلقه .. « اشرب يا جون العجوز يمكنك بهذه الطريقة أن تلتقى بروحه » ! .

« دعه يا ايك .. عندنا مواعيد مع بنات الآلات الكاتبة في الشارع الخامس لا تعطلنا يا جون العجوز ! » لحق بهم يتابع خطواتهم ..

« بحق يسوع لا تذهبوا يا عيال .. الدور عليكم يا خنافس الجيل .. الموت هناك .. والوباء .. شرف أمريكا لا يحميه القراصنة » وأمسك بالسلسلة فوق صدر الغلام الأشقر .. « قلت لا تذهبوا ، الجثث متناثرة في الغابات وقاذفات القنابل تنفث الموت . بحق يسوع .موتوا هنا .. بوذا لا يملك هناك الا نحيبه !! » .

تراكض الصغار في كل اتجاه ، وتركوه يخاطب الخواء .. كف عن الجرى خلفهم عندما دنت السيدة الشابة تمسك بيدها وليدها الصغير .. « سيدتي .. أنت بحق العذراء عودي .. الموت في الطريق .. وديع هذا الملاك كالعصافير ، جنرالاتنا أبادوا هناك كل العصافير .. حتى الغربان نفقت أيضا .. ألقموها حجارة من سجيل .. ضعيه يسوعنا الصغير في مذود البقر وانتظرى ربما يأتي المجوس ويضمخون قدميه بالطيب .. ويكون ملك العالم ربما .. فمن الممكن أن ينحسر الطوفان وتنبت الخضرة في اليابسة من جديد .. عودي . نوح أقلع بالسفينة .. اصعدي بوليدك الى « الجليل » وانتظرى ريتشارد .. ولدى قد تدفع به الموجة عبر المحيط .

أطلت ماري العجوز من داخل الحانة تناديه ..

« تعال يوحنا .. تعال أيها الولد العاق . زبائنى أوحشتهم بركاتك تعال لتطوب السكارى في حانة الجدة ماري .. عندى رسالة من سايجون .. سارة تواصل صلاتها من أجلك هناك ».

لم يلتفت اليها .. اعترض طريق القس الشاب وهو يتأبط اسطوانات الموسيقى ونسخة من مذهبة من العهد الجديد .

« أبانا .. أيها المبارك . قل . هل ينجو نوح ومن بالسفنة . قل يا أبانا من ستكون له الغلبة نوح أم القرصان .. الأسطول السادس يا أبتاه يجوب البحار ، قل لأتباع كنيستك ان لا يذهبوا .. سيأتى هنا من تلقاء نفسه ليخلصهم سيأتى هنا بلا خوف فلن يسوقه كهنة البورصة الى الجلجثة . أقول هذا أنا النقابى المفصول ، خصم مكارثى القديم لن ندعه يساق الى الصليب . لن نترك روكفلر يقيم عليه الدعوى . ولن يسمح لمورجان أن يحاكمه ! » .

قطب القس جبينه يتمتم بكلمات مبهمة وهو يواصل سيره والعجوز يلاحق خطواته .. « تكلم يا أبانا قل لهذه الحبلى ان تأوى الى جبل يعصمها . السفينة أقلعت وغاب الشراع . سيدتى هذا الذى ببطنك لن تذهبى به .. تعالى أعمده لك ويتلقى كرازة يوحنا العجوز ، لن تجدى هناك الا الصحراء والرمال ستكون فراشك عند المخاض والصخرة وسادتك ، ونعيب البوم ترتيلة ميلاده .. وربما يكون قابيل الصهيونى متخفيا هناك ينتظر تعليمات وول استريت ! » .

كان القس قد اختفى بينما العجوز يخاطب الحبلى .. فعاد ادراجه داخل الحانة وهو يقذف فى جوفه بقية الزجاجة ، هلل السكارى عند دخوله . كفت موسيقى الجاز عن جنونها . توقف جسد « سالومى » عن لهاثه .. أهلا يا يوحنا .. هنا يا جون .. على حسابى نبيذك الليلة .. تعالى لتباركنا نحن المساكين بالروم . تطايرت نظراته بين الموائد واتجه الى مارى العجوز مباشرة يتقاسم معها مقعدها بجوار البار .

« كأس يوحنا يا سالومى . جاءتنى منها رسالة يا جون . تسأل عن أخبارك أيها العجوز . . كان يجب أن أمنعها يا جون . تركتها تذهب وحيدة عزلاء تسكب النبيذ لأولاد أمريكا هناك . . اكتب للرئيس كى يعيدها الى يا جون . . حرام أن نتركها للصقور هناك . قد تكون مارقة ولكنها من أحشائى منسوجة تلك النمرة الشرسة سارة » . .

افرغ الكأس فى حلقه مرة واحدة وهو ينظر الى صورة « كيندى » فوق الجدار المواجه له . « قلت له لا تذهب يا ريتشارد . . الموت هناك والعار . . لم يصغ الى الصغير الحالم . . قال لى أمريكا فى محنة . . لم يصدقنى . . قلت له ليس وطنك ذلك الذى انتويت أن تصلب الحرية فيه أنت من تكساس . فلماذا تخوض الجحيم فى سايجون . . لم يصدقنى عاد يتحدث عن شرف أمريكا .

خدعه محرر « التايم » الذى يقبض اكراميات « كارنيجى » . ورحل مع قافلتهم الذاهبة لتعذب الحياة فى وطن بوذا . . راح الولد الطيب ليغمد السونكى فى عنق الفجر . . ، ومات . ولدى الأشقر بطل الرجبى الوسيم » .

وأخرج الصورة من جيبه يبللها بقبلاته الباكية فتناولتها منه العجوز وهى تنظر الى صورة سارة فى اطارها الخشبى فوق البار . وانهمرت هى الأخرى دموعها . .

« كانت تعبده يا جون . لم تجد الدموع عندما تلقت الخبر . اغلقت رتاج الباب عليها ترفض الطعام ثم خرجت تقول لى بأنها ذاهبة الى هناك تبحث عن الخلاص بطريقتها الخاصة . . ستعطى نفسها لأولاد أمريكا الضائعين هناك .

حيث لا وطن ولا قضيــة . ذهبت لتعطى روحهـا لولدك المقتول هناك . وتركتنى لسخافات السكارى وآلام النقرس فى مفاصـلى » .

استرد العجوز الصورة من يدها . ونهض واقفا يمر بهـا على زبائن الحانة . قبلتها سالومى الساقية . فانتزعها منهـا بغضب وهوت كفه بصفعه على وجههـا . اللعنة عليك يا ابنـة الزانية .. نظرت سالومى الى صدرها العارى وهطلت دموعها ثم دفنت وجهها فى رخام البار تنتحب .. قذفه شارلى عامل الميناء ببقايا الخمر فى كأسه . « جون كن ولدا هادئا .. لم أقلع عن احتراف الملاكمة بعد . سالومى بنت بنت طيبة » .

« اهتز قلب العجوز لنحيبها وبدت عليه كآبة الندم فذهب يربت بيده المرتعشة فوق كتفها » ..

« عفوك سالومى .. تعالى أعمدك .. لم تذبحى أنت يوحنا .. قتله مكنمارا .. خذى ضعى فمك فوق خد ولدى .. فتى امريكا المعبودة الشرسة » ..

واختنق حلقه بالبكاء وهو يواصل كلماته فى همس حزين حـالم :

« لكم كنا نحب أمريكا يا رفاق .. اعطيناها عصارة القلب لنحميها من جراثيم التاريخ . اردنا أن نزفها بعذريتها البريئـة الى عصر جديد عروسا تسكب الطهارة فى قلبه .. ولكن القراصنة اختطفوها منا ونحن فى غفوة الحلم .. قبليه يا سالومى . انها صـلاتك من أجله .. جففى هـذه الدموع لأباركك .. أباركم جميعا نفاية أمريكا وبثورهـا . يا من تركتموها وجئتم لتغرقوا تمزقات عاركم فى النبيذ . اباركم . أبارك سارة الزاحلة تبحث عن الخـلاص . وتحتمل رجم قبلاتهم السكرانة . عساها تجد

ولدى . لقد باركها هو عندما دهنت قدميه بالطيب والقم التلاميذ احجارا فى افواههم الفاغرة دهشة » .

« جون العجوز . كفاك ثرثرة .. اوجعت ادمغتنا بهذيانك ان كانت السياسة مهنتك فاذهب الى الكونجرس .. ودعنا لغلبنا بلا غد يومنا .. الساعة قادمة شجرة التين اورقت . واورشليم سقطت ودخل القطيع التائه باللعنة بيت الرب قلت لهم هذا فطردونى من كنيستى الصغيرة يا جون .. قالوا بأننى أجدف. واصبحت بلا رعية انتظر الخلاص فى حانة الجدة مارى . صمتا يا يوحنا لا توجع قلب الكهنوتى المطرود » .

« لا .. دعه ياراسك واشرب نبيذك فى صمت لم تأخذ نحن كنيسك .. تابع يايوحنا قل متى سيأتى الذى لا تستحق انت أن تغسل قدميه هل سيأتى ليباركنا فى الحانة ويعيد لنا الأولاد من آسيا .. ستقدم له سالومى كأسا من أعناب يافا » .

اقترب العجوز من الكاهن المفصول وتناول الزجاجة من فوق مائدته وأفرغها فى جوفه بلا كلمة « هذا كلام الكهنة ، والتايمز والفريسيين ايهما القس المخلوع .. اقول لكم أنا يوحنا النقابى طريد مصانع الصلب .. شجرة التين التى اورقت زائفة.. لم تعطها التربة عصارتها .. صنعت هنا فى قوارير الاختبار . أوراقها المصنوعة فى المعمل سوف تجف ، أغصانها المدهونة بخضرة الزيف سوف تتساقط فلا أصلها ثابت ولا فرعها فى السماء . لقد صنعها الكهنة ليدخلوا بها بيت الرب ويجمعوا تحتها أحقاد العصور عساهم ينتقمون لعارهم فى التاريخ . ومهما عربد الأشرار فالشمس تشرق من هناك وحتما سينجاب الضباب ويسطع أفق الخلاص ..

« تابع يا يوحنا .. تابع . هــذا كلام الأنصــار يتلى من جديد . كأســا ليوحنــا على حسابي وتعــالي لتأخــذي نقودك يا سالومى » ..

من جديد أخرج العجوز صورة ريتشارد من جيبه وأغمض عينيه وأدناها من فمــه يلثمها .. ثم ازاح الزنجى المخمور من فوق المــائدة وصعد فوقها يحاول أن يصاب عوده .

« الحق اقول لكم .. لتكون أمريكا لنا وملكوت السموات. اوقفوا الطوفان .. اوقفوه .. أقيموا الســدود اقتلوا التنين اغمدوا الحراب فى أمعائه .. خلصوا فتاتنا من أحضان التجار ، وسيأتى حينئذ ليخلص العالم ويعطيه لنا .. سيأتى ليخلص العالم ولدى ريتشارد سيأتى . ويطرد كهنة النقابة وسماسرة الكنيسة ولن يسوقوه الى الصليب هــذه المرة . لن يسلمه يهوذا ، ولن يحاكمه بيلاطس .. فستحميه الملايين المنتظرة بشبق الخلاص . ويكون لها . لأنه من داخلها جاء ، وفى البدء كان فيها وسيطرد الكتبة .. ويغنى « روبصون » لنا وللسود .. ستأتى قوافل الصين وتندمل جراح هانوى . ونعطى القمح لجيــاع الهند .. ويعانقنا الذين أحرقت قنابلنا أرزهم وتقوم دنيا جديدة ، يخضر بها زيتون المحبة وبرتقال السلام .. وندخل جميعا بيت الرب .. ولكن الحق أقول لكم .. علينا ان نحتمل آلام المخــاض . أن نحتملها حتى الموت . ! » وهن صــوت العجوز وغدت الكلمــات تخرج ميتة بلا صوت من فمه .

هبط من فوق المــائدة .. وقد غامت عيناه وهو يترنح ويده فوق بطنه ثم تداعى فوق المقعد والقى براسه فوق رخام المــائدة. اغرق الصمت الحانة . سحب الزنجى قيثارته يخرج منها انغاما

متأوهة .. تقدمت مارى العجوز تجس كفه فانتفض من يدها باختلاجة حياة عابرة ، وأخرج صورة ريتشارد من جيبه يحدق إفيها بنظرات خابية منطفئة ثم أعطاها للعجوز مع صليب نحاسى صغير.. ومن جديد تداعت رأسه فوق المائدة .. أناخ الزبائن ذقونهم فوق الصدور .. بينما تعالت انغام الزنجى تنفث الكآبة .. وما زالت يد مارى تطبق على كف العجوز بدون أن تعرف .. هل يوحنا فى غفوة . أم انه كان يلفظ انفاسه ! .

الســـاعة الـ ٢٥

الظلام دامس .. شع الضوء خافتا فى البداية .. اتســع رويدا رويدا حتى أصبح متوهجا كالحريق .. خفت من جديد وتركزت بؤرته على الجثة الملقاة تحت الجدار هامدة وقد تجمد الدم حولها والصغير الأسمر بجانبها يحدق فى الضوء مبهوتا .. لم يستطع الموت أن يغتال الشعاع المنبثق من أغوار عينيها .. تبدو كأنما مجرد غيبوبة قد جرفتها متاهتها . الدم وحده يؤكد بأن الموت قضى وطره .. ثمة رجل يقف فى الوسط يحمل تحت ابطه لوحة على شكل خريطـة جغرافيـة .. ينظر الى الجثـة صامتا . لم يكن مدهوشا كان مجرد حزين !!

عندما هم بأن يحمل الرضيع من فوق الأرض تناهى اليه صوت رجل آخر ظهر فجأة .. لا يعرف هل كان متواريا أم طفر من أعماق الأرض .. كان يحمل غدارة فى يده ..

ـ قف أيها الأبله .. لم يعد الآن ينتمى لك .. لا منجاة لك

لا أحد يفلت منا .. من متاهات الفضـــاء كنا سنأتى بك .. من أعماق المحيطات كنا سنعيدك ..

نظر الى الوراء وجد الغريب يوجـه فوهــة الغدارة الى ظهره .. عــاد يحـدق فى الجثــة محــاولا أن يخفى اللوحــة داخل قميصـه ..

ـ قتلتموها .. أخــيرا .. كانت هى على يقين من هــذا المصير . أبدا لم تجفل منه . قالت بأن من يختــار درب الانســان عليه أن يستعد لملاقاة الأهوال .. وكانت واثقــة بأنها لا تموت أبدا . تبعث دائما وتمتد فى كل نبت يخرج من التربة من جديد .. قتلتموها أخيرا .. ولكن الطفل ليس بوسعكم أن تنالوه فقد أعطاه الزمن حصانتــه .. يوما ما سيجعلكم تدفعون ثمن كل عــذابات الأجيال .. قتلتموها أخيرا ..

ـ أنت وحدك المجرم .. قتلتها بتمردك المهزوم .. بأحلامك الحمقاء .. كنا نعرف أنها الوحيدة التى تعرف سر شفرة خريطتك تلك اللعينة .. رفضت أن تتعاون معنا . لقد استبقينا الطفل رهينة عساك ترعوى فى النهاية .. طاوعنا . فك لنا رموز الشفرة نبق لك الصغير .. واهم أنت لو أعتقــدت بأن تعويزة دراويش التاريخ ســوف تحميه .. وسائلنا الالكترونيــة أبطلت مفعول السحر يا قديسنا الموهوم ..

ـ لا أبدا .. لن أعطيهــا لك .. هذه اللوحة لا تخصنى .. أمانة هى عرضت على كل الكائنات فأبين أن يحملنهــا وحملهــا الانسـان انه كان جســورا .. جيــل ما بعد الطوفــان لابد أن يعرف .. لا يمكن أن ينمو تاريخه الجديد فى وجه السديم .

انشقت الأرض .. طفرت منها بعض الأطياف .. ظلت تحوم

حول الجثة لحظة ثم حملتها والطفل معها تحلق بهما وهى تنشد تراتيلها بلغة مجهولة .. ثم اخترقت السقف وطارت بهما فانطفأ الضـوء وعم الظلام حالكا كما كان فى البداية .. اندفع حامل اللوحة يجرى .. ركض حامل الغدارة خلفه يلاحقه ..

الشمس تسطع فى الأفق .. ولكن الظلام يطبق على الكون. ومن السماء تتساقط النجوم ميتة فوق الأرصفة .. حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يجرى فى أعقابه ..

المدينة مزدحمة .. مكتظة بالأجساد التى تتراكض لاهثة .. ولكن الصمت يطويها .. لا أحد يتكلم .. لا أحد حتى يومىء المدينة كلها خرسـاء الخوف فى العيون .. الرعب فى الخطوات لا صوت غير نعيب بومة ينعق حادا فى الفضاء .. حامل اللوحة يجرى .. حامل الغدارة يركض فى أعقابه ..

ارتطم حامل اللوحة بعجوز تحمل طفلة مشلولة فوق كتفها فاعترضت سيره ..

ـ يا عابر السبيل ساعدنا لنلحق بالقافلة من (سادوم) نحن .. ضللنا الطريق . البنت ظامئة والطاعون يغزو مياه تلك المدينـة ..

التقط أنفاسـه يحـاول أن يحمل المشلولة عنها فوجد حامل الغدارة قدامه .. لم يره ولكن تناهت اليه كلماته ..

ـ لا تتعبنى بلا جدوى .. محكوم عليك بالهزيمة .. أرحنى وأرح نفسـك .. فك لنا رموز اللوحة . أعطنا مفاتيحها .. هذه المناطق الغريبـة المرسـومة عليها أعجزت أساطين علماء الجغرافيا عندنا .. لن تستطيع الافلات . من بلاد واق الواق سنأتى بك . لو أعطيتنى مفاتيح الشفرة بشرفى سأتيح لك محاكمـة عادلة ..

لن يعرف الذين تنتمى اليهم انك كشفت السر .. وربما تكفل لك الاستقرار فى قارة تلجأ اليها ... ويمكنك أن تعمل فى المنفى لحسابنا ..

ـ قلت لك لا .. ماذا تفعلون بها .. انها جغرافيا علم ما بعد الساعة الخامسة والعشرين بعد ما تأخذكم الصاعقة .. ويجرفكم الطوفان .. ويأتى يوم الانسان .. !!

ـ لسنا من البلاهة حتى تستغفلنا انت .. شفرتها تحمل مفاتيح مؤامرة لغزو العالم ..

تشاغل حامل اللوحة بانزال المشلولة من فوق كتف العجوز واندفع من جديد يجرى . فجرى حامل الغدارة خلفه يلاحقه .

لاحظت الجموع بأن الرجل يجرى فى اتجاه مخالف لاتجاههم فاستداروا يعاودون الجرى فى الاتجاه الذى يمضى فيه. لا يعرف ان كانوا يطاردونه أم يهربون معه .. ضاع حامل الغدارة فى الزحام . من بعيد سطع ضوء لاحت على وهجه المقابر المهجورة متشابهة بلا شواهد .. اختفى الوهج وساد الظلام مرة اخرى .. ومن جديد اندفع نعيق البومة زاعقا فى الفضاء ..

نظر حامل اللوحة حوله .. كان وحيدا .. فتوقف يلتقط انفاسه ..

سطع الضوء من جديد .. هب الموتى من المقابر يحدقون فيه بعيون فاغرة .. فارغة كالثقوب ..

ـ من أنتم .. من أنتم .. هذه الرائحة شممتها من قبل فى (هيروشيما) فى ... (كربلاء) فى (دير ياسين) . ؟

ـ نحن الذين قلنا لا للجحيم ، فقأ الرخ عيوننا .. قل لنا هل جاءت السفينة .. أم تراه نوح قد خدعنا ..

لم ينتظروا اجابة لسؤالهم عادوا من جديد داخل قبورهم. الأرض تلمع .. تتحرك .. أسراب من الذباب تهوم فوقها طارت واحدة واندفعت داخل حلقه فانطلق نعيب البومة ملتاثا.. فوجىء من جديد بحامل الغدارة قدامه وقد تدافعت قهقهاته عربيده منتصرة .

ـ قلت لك لا منجاه لك .. ها قد نفذ الوباء داخل جوفك .. انها سرطان العصر اما أن تتوافق معه أو تتمزق .. ان توافقت نعطك عقار الهلوسة .. شيء لذيذ أن تحتضن (زازا جابور) فى أحلامك .. مليارات روكفلر .. وكنوز قارون لا تعادل هذه المتعة .. ان ترفض ليس لك غير أن تنتحر من داخلك ..

ـ جف حلقى .. اعطنى جرعة ماء !!

ـ انت ابله يا هذا .. قتلت أنا الحسين لأنه طلبها لوليده ذات يوم فى (كربلاء) .. أنت غريب يا هذا .. أتحلم كثيراً .. عندما كنت صغيرا أكانت لك جدة تهذى عن (الشاطر حسن) ؟ !

ـ لا تذكرنى بها جدتى العجوز .. كانت طيبة تحب الملائكة. والفجر .. وتغنى لنسمة الشروق وتصادق بالليل نجمة بالأفق البعيد .. مع حواديتها كنت أحلم بأن أكون الفارس الذى يخلص أميرة الشمس من أنياب غول الظلام .. ماتت جدتى وفى فمها علقم الاحباط .. ولكنها أوصتنى بتخليص الأميرة .. آهاتها المعذبة كانت تمزق منها نياط القلب . !

ـ غبى انت .. الا تعرف أن أنياب الغول ذرية .. (جيمس بوند) وحده الذى يصرع الغول .. أيهما تحب أن تكون ؟ جيمس بوند أم الشاطن حسن ؟ !

ـ احب الشاطر حسن .. عاشق أميرة النور .. فى مكان

ما من هذا العالم يوجد هو .. مهمتى أن ألقاه لأصطحبه فى مسيرة الخلاص قبل أن تبدأ الســاعة الخامسة والعشرين ..

ــ وهذه الخريطة هديتك أليه .. اصدقنى ..

ــ يا حامل الغدارة .. أنا أعزل فلماذا لا تقتلنى ؟

ــ ليست تلك مهمتى ..

ــ أنت شرير ..

ــ أنا أيضا أقول هــذا عنك . قالها وسحبه من يده وغادرا مدينة الموتى ..

ــ لنأخذ برأى الناس فى هــذه المســألة .. سيدتى من فينا المجرم الذى يحمل اللوحة أم الذى يصوب الغدارة ؟ ولدى من فينا المجرم الذى يحمل اللوحة أم الذى يصوب الغدارة !!

ــ لم يجب أحد كانوا يحدقون فيهما ببلاهة ثم يواصلون مسيرهم وهم يركضون .. اعترضهم حامل الخريطة ..

ــ قفوا لحظة لنقل لا للجحيم .. قادمة هى الساعة الخامسـة والعشرون .. لست بكاهن أنا . لست بساحر أنا .. انها نبوءة عثر عليها الشاطر حسن فى أحد كهوف أورشليم !! انطلقت قهقهة حامل الغدارة ..

ــ ناس هذه المدينة مصابون بالصمم .. اقذف بكلماتك ان شئت فى الخواء للأبد ! فغرت الأرض فاها .. خرج من جوفهــا بعض الناس .. واحدة من العجــائز قدمت الطفــل لحــامل الخريطة وهى تخبره بأنهم كلفوها بهذه المهمــة .. اجتازت به الفيافى والقفار محــاولة ان لا تراه عين الرخ وأن لا تشمه خياشيم الغيلان .. قبل أن يصــل الطفل الى ذراعيه كان قد اختطفه حامل الغدارة .. كان الطفل يلعق شفته من فرط العطش !!

ـ أعطنى الطفل .. اعطه لى .. قتلتموها . فما ذنب من لم يرضع بعد من ثدى الأحزان ؟

ـ الطفل لا يدخل فى نطاق مهمتى .. قل لى سر الخريطة أعطه لك .. وجوده لا يهمنا .. يهمنا أن يعيش بلا ذاكرة .. اجيال انابيب الاختبار القادمة يجب أن تعيش عصر الوفرة بلا تراث . نريدها أن تنجو من عقد التاريخ !!

جاء رجل عجوز يحمل مبخرة فى يده وتتدلى المسبحة فوق جلبابه المخيط من خرق مختلفة الألوان وقف بينهما وهو يقذف المسحوق الأبيض فى جوف المبخرة ويتمتم بتعاويذ غامضة ..

ـ أيها الدرويش أمعك جرعة ماء .. هذا الوليد يكاد يقتله الظمأ ! .

ـ لا تقل هذا يا ولدى .. عملاء (بنى أمية) يرمونه بالسهام لو سمعوك .. (يزيد) سيدفع ملايين الجنيهات لمن يحمل اليه راسك !!

ـ هل رأيت الحسين يا جدى ؟

ـ شاهدته عند مشارف الأفق يسلم المصاحف لرجاله والمدافع . لماذا تخلفت عن السفينة يا ولدى .. اقتربت الساعة وانشق القمر .. قالها وامتطى بساط الريح !

أطلق حامل الغدارة ضحكاته ..

ـ السفينة .. ها ها .. لقد غرقت فى قاع المحيط . اعترضتها حاملة الطائرات ودمرتها الغواصة بالصاروخ . !

ـ نوح .. قل لنا ما مصيره ؟ قذفت بالسؤال واحدة من العجائز بعد أن توقفت عن جريها .

ـ ربان السفينة .. غالبا يغرق معهـا .. يا حامل اللوحة (صابرة) امرأتك كانت بالسفينة ابتلعها نفس الحوت الذى ابتلع (يونس) صاحبك القديم ..

ـ أحبها يا لها من أنثى رائعـة كانت .. فى أنفى مازالت رائحة أنوثتها .. لذيذة عبقة .. لها سحر عجيب .. عجيب سحر (صابرة) . كم بكينـا تحت ضـوء النجوم .. والنجوم كم بكت معنا أيضا .. ذات ليلة بكى معنا القمر كذلك .. على خد حبيبتى تساقطت دمعته فسفورية ساخنة .. حذرتها من الجحيم .. قلت لها طريق الذين يحملون أبواب المصـير فوق كواهلهم ملىء بالأشواك والأفاعى ورياح السـموم .. أجـابت فليحمل كل منا صخرته ونمض فى رحـلة الآلام عساه ينزاح الجحيم ..

خرج الدرويش من جوف الأرض يحمل مبخرته من جديد . اشار لحامل الفدارة يقول :

ـ لا تصدقوا هذا الزنديق .. لا تصدقوه .. رأيت الحسين بنفسى يرفع الشراع على متن عباب المحيط .

ـ يا حامل الفدارة لـماذا تطارد حامل اللوحة .. قالتها صبية بيضاء ذات ضفائر مجدولة .

ـ يعتقدون انه المسيح .. أرسلنى (بيلاطس) فى اثره .. انا مجرد عبد المـأمور !!

جاء طفل يجرى لاهثا يخاطب الدرويش ..

ـ يا معلم لا تدعهم يصدقون هذا الرجل .. كلماته حبلى بالأكاذيب قال لنا ذات مرة بأن المسيح ذهب الى القطب لينقب عن الحفريات القديمة وأقسم بأن (المجدلية) كانت فى وداعه ..

عمياء قريتنا تقول بأنه سافر لمهمة أخرى .. قالت بأنه سيعود تماما فى الدقيقة الأولى من الساعة الخامسة والعشرين .. سيعود ومعه شهيد (كربلاء) .. انهما بالسفينة يحاولان اكتشاف القارة المجهولة .. اقترب الطفل من حامل الخريطة ..

ـ ايها السـيد العمياء تبحث عنك .. كلفها الشاطر حسن بمهمة تخصك .. لقد هربت من جحافل التتار فى أورشليم لتعطيك رسالته .. ها هى قادمة .. تعالى يا جدتى العذراء .. جاءت المراة واقتربت من حامل الخريطة تهمس فى أذنه .. فقبل يدها ثم انطلق يجرى وهو يحتضن الخريطة الى صدره وحامل الخذارة يلاحقـه ..

ـ كان ثمة رجـلان يركضان فوق الرصيف المواجه قـال الأول للثانى ..

ـ لنغادر هذه المدينة .. انها تعيش خارج نطاق الزمن .. انها بلا تاريخ بلا ملامح بلا شمس .. بلا نجوم .. بلا شفق .. بلا غروب .. أجاب الآخر :

ـ لا يهم .. كل المدن سواء . عـاد الأول يقول :

ـ انا ذاهب الى القارة الأخرى هناك معركة .. هل تأتى معى ..

ـ فى اى جانب ستقاتل .. الثوار أم الأشرار .. أجـاب الأول بقوله :

ـ هذه ليست قضيتى .. انا ذاهب لمجرد أن اموت ..

ـ هذا فراق بينى وبينك .. لن استطيع لك صبرا .. قالها ومضى يركض فى اتجاه مخالف للاتجاه الذى مضى الآخر فيه.

ـ قف .. أيها المجنون .. قف .. قالها حامل الغـدارة لحامل الخريطة ثم أردف ..

ـ وعدت أن أسلمك حيا .. ولكن لقد أنهكتنى المطاردة .. بلغت قمة اليأس تعـال معى أو أقتلك .. سأقتل نفسى أيضـا فلن انجو من المحاكمة لو عدت بدونك ..

نظر حـامل اللوحـة الى الأفق كانت النجوم قد كفت عن التسـاقط ميتة فوق الأرصفة ..

ـ كم ساعتك الآن يا حامل الغدارة ؟

ـ الرابعة والعشرون الا دقيقة ..

ما أن قالها حتى كفت البومة عن نعيقها .. هوت الى الأرض ميتة .. وانطلق فى البرية صوت يبشر . طوبى للمساكين بالحب. طوبى للمساكين بالحق .. طوبى للذين يطرقون أبواب الغد .. ويرصفون طريق الخلاص .. طوبى للذين يضيئون الشموع .. ويواصلون المسير ويقتحمون المصير .. فجرهم قادم .. شمسهم ستشرق .. يومهم آت ..

نظر حامل الخريطة الى الأفق عندما تناهى اليه النداء .. فرأى (صابرة) ترفرف بجناحيها تحف بها هالة من الضياء وقد حطت على رأسها حمامة فى منقارها غصن أخضر ..

ـ يا حامل الغدارة .. لقد انتهت المسيرة .. ها هو زمنك يموت .. عالمـك بأسره يواجه الاحتضـار .. نجا طفلنا .. وكذلك الوثيقة وجاء يوم الانسان !

لاحت السفينة تمخر عباب اليم مقدمتها ويخفق مع الريح شراعها .. تداعى حامل الغدارة .. فاحتضن حامل الخريطـة الطفل ومضى تجاه السفينة .. !!

صــور قصصــية

متعوس الزمان .. والشاغبون !

لحظـة .. فى عيونــهم

هــذا الصــوت .. وآخـرون

متعوس الزمان .. والمشاغبون !

* حدثنا متعوس الزمان الأدباتى .. فض فوه .. حتى لا ينكدنا على الدوام بما يحكيه ويتلوه ، قال : تعلمون يا أولاد الأفاعى . أنه منذ « رزئنا » بولى عهدنا المفعوص . نفقت من يدنا الفلوس . لا لأنها كثرت ـ كما يقولون ـ مع البغال والجاموس فهذه حجة كل مفلس منحوس ..

ولكن لأن كل ما يصل الى هذه اليد بالكدح والعذاب والكد . بعد نشر مقال أو قصة .. تسبب لنا الف حسرة وغصة . كله يتسرب الى دكاترة الباطنة .. وحكماء اللوز والحنجرة .. فقد ولد ـ اسم النبى حارسه ـ مخمرة أمراض .. وبؤرة أدواء . تستهلك الف دواء ودواء .. وسبحان من له الحمد فى السراء والضراء .. ومنذ أسابيع أجرينا له عملية جراحية خطيرة فى عظام القدم .. كلفتنا الجلد والسقط .. وارغمتنا على إن نصاحب ما هو هم بالليل وذل بالنهار !!

وداهمتنا بعد العملية مشكلة .. هذا المفعوص تعودناه كتلة من شقاوة .. وشيطنة .. فكيف سيحتمل قعدة الفراش مشلولا بالجبس لأسابيع سيطول مداها .. بالتأكيد ستضاف الى علله الجسمانيـة بعض العقد النفسية .. وانبرى خبراء علم النفس وخبيراته .. عمه وامرأة عمه . وبنت عمته .. وخالة أمه .. يقترحون شراء تليفزيون ليسليه فى قعدته . ويسامره فى نومته من أين يا سادة . ونحن على فيض الكريم .. ولا دانق فى الجيب ولا درهم تحت الوسادة ؟ ومسحنا البيت عن شيء يباع فندر وجوده . كتب .. وكتب ثم كتب .. وهى أتفه من أن تخطر على بال زوجتى فكرة بيعها .. فهى تعرف فى السوق تفاهة قيمتها .. وحتى عندما هددت من قبل بتنظيف البيت منها .. لم تتذكر شاريا لها غير بائع الروبابكيا وحده .. ولا ألومها .. صدقونى .. فلو كنت مطرحها لمزقتها هـذه الكتب .. فما جدواها ولم تجلب لها مثل حريم الآخرين ثلاجـة .. ولا جعلتهـا تصيف مرة فى الأنفوشى ولا أقول المعمورة !

* المهم .. لم يعدم الخبراء الحل .. فى الحال عملوا لنا « جمعية » قبضناها .. وأصبح فى بيتنا تليفزيون نشاهد برامجه . ونتفرج من خلاله على سيقان هالة الصـافى . وباروكة سـمير صبرى .. ومواويل المعلم متقـال واشياء أخرى .. وصمت متعوس الزمان ريثما يلف سيجارة .. انطلق ينفث دخانها لا من فمه بل من منخاره .. ومن بين سحب الدخان عاد يقول :

ولمدة أسبوع ظلت مقدمة برامج السهرات تبشرنا كل مرة بأن « مدرسة المشاغبين » فى الطريق الينا .. كانت تزف الخبر بطريقة من يشوقنا لانتظار حدث خارق أو يمن علينـا بمنحـة سيغدقها . وفى كل مرة يصفق صغيرنا مشوقا الى خريدة العصر

وفريدة الدهر .. ولولا الجبس فى قدمه لنهض يأخذ التليفزيون فى حضنه .. فمن قبل حكى له أنداده فى المدرسة .. عن أفاعيل الناظر عبد المعطى . وعن كسر ذراع مرسى الزناتى بواسطة « الأبلة » .. وكيف أن اذاعة لندن ضمت كل موجاتها لتذيع القرآن لأن « مرسى الزناتى انهزم يا رجاله » وحدثوه أيضا عن مخ يونس شلبى الذى يفتقد « التجميع » !!

وجاء يوم الخميس المحظوظ . وبدأ العرض يا أولاد .. وانهالت مساخر الأولاد .. تلميذ يحمل تحت ابطه حزمة مفاتيح من كل المقاسات .. احتياطا للمستقبل يجمعها .. فهل « يصيع » اذا فشل فى المدرسة .. الحل جاهز والشقق موجودة وفى الفصل يفتح التلميذ حقيبته بطفاشة . أمام حضرة الناظر . والوالد المبجل .. كانت بوتيكا صغيرا .. واخرج المراجع . على حد تعبير سيادة الناظر ــ الناظر الذى أخذ يجرى امامنا والتلميذ يطارده ــ ويسكى وسوتيان وخرطوشة سجاير وقطعة صوف يفصلها الأب بثمن بخس فيتهمه الابن بالسرقة . وينتهز الناظر الفرصة ليصادرها . وبالطبع ليضمها الى مراجع مكتبة « مدرسة الأخلاق الحميدة » التى هو ناظرها ! . ونتابع المشاهد وتتوالى الفاظ من احط قواميس السفالة قد اشتقت .. تلميذ يخاطب الناظر بقوله « يخرب عقلك دا انت مسخرة » نعم .. ألم نشاهد عبد المعطى هذا الناظر يرقص لنا حواجبه على ايقاع ترقيص أردافه !! ويأتى تلميذ نابه آخر ليأمر الأب بقوله : « نزل أيدك جنبك .. قدام ابنك » .. وآخر من تلاميذ المدرسة يقول : افتح رجلك يا جبان اقلع الجزمة » .. للناظر طبعا هذه الكلمات موجهة .. عشان التلميذ يمده . !!

وتأتينا وصلة ردح بين حضرة الناظر ونجباء المدرسة .. « ليلة أبوكم مدهوسة والدة أبوكم آنسة .. خالة خالتكم خنفسة.

مناخير أبوكم ملحوسة .. » .. يحدث هـذا والولد الصغير تنطلق قهقهاته ملتاثة بالانبساط . غدا .. ماذا سيفعل بى هـذا الصغير عندما تنمو قامته وتنشف يده ؟ أعصـابى تتمزق لمـا أراه من اهانة كل المقدسات التى تربى عليها جيلى .

وتتوالى المشاهد .. مدرس يقلع فى الفصـل هدومه .. بطريقة تضحك ولكنها تقزز « كاد المعلم أن يكون رسولا » الشاعر الذى قالها لو امتد به الأجل ليشاهد عبد المعطى ناظر مدرسـة الأخلاق الحميدة والمدرس الذى خلع هدومه ترى ما الذى كان سيقوله ! ويجرى يونس شلبى كالبطة المزغطة بخفة دمه وثقل شحمه يريد أن يبطح والده حضرة الناظر بورقة فى يده .. وفجأة تفرقع بمبة ويخرج لنا الناظر من الفارة .. كأنمـا من منجم فحم يخرج .. ويصفق يونس شـلبى لمرأى والده وقد تلطخ بالهباب .. ويهتف فى فرحة « ايه .. أبويا اتحرق أبويا اتحرق. أبويا اتحرق . راح النار . » ويتمنى ما حدث لأحد زملائـه « عقبال والدك » .

يا سلام !! لعلكم معشر الآباء كنتم تستلقون لحظتهـا على أقفيتكم من الانبسـاط خذوا عندكم .. أحد التلاميذ يسـال ابن حضرة الناظر .. هل والده « مهروش » ويرد الابن « أيوه . مهروش .. مين اللى قالك » اسـتلقوا من جديد على أقفيتكم معشر الآباء .. الدور عليكم .. وستقال لكم على الطبيعة غدا . ولعلها قيلت .. !!

واشعل متعوس الزمان لفافة أخرى من عقب السيجارة التى احتضرت وعاد يتابع القول :

منذ جاء هذا المفعوص يا أولاد وتواجهنى مشكلة ..

هل فيكم يا عيال من يفتينى فى هذه المسالة .. هل أتدخل فى تربيته أم اترك الأمر لظروفه يكيف نفسه معها .. فربما لو علمناه ما تعلمنا من بيوتنا وما اكتسبناه من الثقافة لخرج خيخة وملطشة فى عصر يحتاج الى مخالب وانياب .. ما رايكم .. لا احد فيكم يريد أن يفتح حلقه باجابة .. جميعكم أجهل من دابة .. لنعد الى مدرسة المشاغبين افضل !

توالت يا أولاد أمامنا المساخر .. من التلاميذ والناظر .. تلميذ يقول لأبلته الآنسة .. مدرسة الفلسفة « أنا حر .. امسك الحتة اللى على مزاجى » بطريقة متقصعة تنطوى على ايحاءات معينة .. ورأينا الدخان يخرج من نخاشيش مرسى الزناتى . والتلاميذ يتبادلون الأنفاس من خرطوم أوله فى الفصل ونهايته فى المبنى المجاور .. ويكتشف « الزعيم » الأباصيرى رداءة السبرتو الذى يكرعه فى الفصل جهارا فيؤنب التلميذ الذى اشتراه له لأنه جاء بجاز وليس سبرتو .. تذكروا أن هذا الزعيم كانت معه زجاجة ويسكى فى بداية الفصل الأول .. فلماذا انحدر حاله؟ وتطلب الأستاذة الجديدة من التلاميذ الخروج لتخلو بالزعيم فى محاولة لاصلاحه .. يرفض البعض متوهمين أن الخلوة لسبب آخر .. ويقولها الزعيم « حانقطع على بعض » هنا ينسحبون وفقا لمفاهيم الجدعنة .. ويفتح فالنتينو المصمص أحضانه ويخاطب أبلته « وكانمة فى قلبك طول المدة دى » .. وتطلب منه أن يقعد فيستغرب .. « عايزانى لوحدى عشان أقعد .. افرقع العيال واطردهم طيب اطلع أقولهم كنت قاعد ؟ ! » ومن الخارج تفد الأصوات .. تبدى الحسد أيوه يا عم .. الله يسهل لك ويقول الزعيم : « لسه محصلش حاجة..والعالم عمالة تقز برة » ويتكشف المدلول من الأصوات خارج الفصل : « ها نحدفكم

بالطوب » .. طبعا انتم تعرفون الحـالات التى يتم فيها قذف الطوب فى حوارينا وازقتنا .. وادعاؤنا الجدعنـة والشرف . عندما يكون صاحب الفعلة غيرنا !!

لم استطع الاحتمـال .. اى اجرام وابتذال هـذا الذى يقتحم به التليفزيون بيوتنا . امام عيالنا وحريمنا .. لو ترك لى الخيار لحطمت الجهاز وليذهب الذين تطوعوا بلم فلوس الجمعية الى الجحيم .. لم اكذب خبرا .. اخذتنى النعرة فأغلقت الجهاز فى احساس بالقرف .. تشنج المفعوص وتدافع نحيبه .. لهفته قلما .. وقرأ الجنون فى عينى فلم ينبس .. اسـدل الغطاء على وجهه يشهق من تحت اللحاف .. نظرت حرمنا المصون فعرفت أن نفس الكف على استعداد لأن تحفر قناة دم فوق صدغها .. فاكتفت بمصمصة الاحتجـاج .. واطفأت النور .. واحتضنت محروسـها !!

* قلت لأستاذنا متعوس الزمان الأدباتى ، يبدو يا مولانا انك من هواة الغم والنكد .. وأن بينك وبين المسرات ثأرا قديما .. تريد ان تكون حياتنا احاديث عن أبى هريرة وابن المقفع والرازى وابن مسكويه .. وابن مش عارف ايه .. الحياة يا معلمنا بجانب هذا اغنية جميلة نرددها .. ولحظات مرح نهرب بها من هموم زمانـنا .. وما طعم الحيـاة اذا غاب منها مدبولى وليلى مراد وفايز حلاوة .. ! انسيت الحـديث الشريف الذى يحثنا على الترويح عن النفس حتى لا تصـدأ القـلوب بالهم . أنت غاوى نكد وبس !!

* قال متعوس الزمان ؟

تأدب أيها المنكود .. والزم الأدب والخدود .. فنحن برغم الفقر والثقافة من أعلام الانبساط والفرفشة .. وعندما تتاح لنا فرص التجلي نضحك طوب الأرض بنكات لاذعة . ولو كان الرشيد قد تأخر مجيئه حتى أدركنا لما وجد النواسى رغيفا يقضمه .. ناهيك بزق صهباء يكرعه . ولكن هناك فارقا بين المرح والابتذال .. بين الاضحاك بالمفارقة وبين الاضحاك بالسفالة .. بين شفافية الكوميديا .. وبين قافية الغرزة !!

لحظـــة .. فى عيونهـــم

لم انم ليلتها .. ارقنى التوق الى اللحظة .. وانا اتاهب للذهاب الى سيناء فجرا .. فثمة جثث جديدة قد اكتشفت .. وعند منطقة الخربة سـوف تتسلمها اسرائيل صباحا .. أعداء أصحاب هذه الجثث .. ولكن مصر تفعل هذا استجابة لأصـالة الحس الحضارى فيها .. هم أنفسهم جاءوا يقدمون الموت .. ينفثون الدمار .. يصنعون الخراب .. ولكن الحس الحضارى فى مصر له منطقه .. حرمة الموت كامنـة فى الذات المصرية منذ القدم .. تنتظر هذه الجثث قلوب أمهات وزوجات وابناء .. قلوب فيهـا برغم كل شىء مشـاعر البشر .. وتوق أن يكون للغـائب قبر يأويه .. ليست المسـألة بالنسبة لنا مجرد التقاليد العسكرية .. فما أسهل أن تخفيها الرمال هـذه الجثث .. أو مياه القناة .. أو أن تقدم وليمة للغربان فى امتداد الصحراء .. وليس هناك من شاهد .. ولكنه ضمير الحضارة .. !!

لم انم ليلتها .. اللهفة تؤرقنى .. رغبـة جارفة فى رؤية

المشهد .. لم أستشعرها من قبل ابدا .. رغبة فى أن اراهم وهم يتسلمون جثث قتلاهم .. أن أرى انعكاس المشهد فى عيونهم .. أن احدق فى اغوارهم .. أن أتذوق طعم الاستكشاف ..

هذه الجثث .. ما الذى ستقوله لهم .. أتراها تذكرهم بالمصير لو كابروا فى الانسحاب .. لو عرقلوا السلام .. لو أخذتهم العزة بالاثم وتجاهلوا هتاف الحق .. !

ليس التشفى هو الذى يسوقنى لمعانقة اللحظة .. ليس هو .. لو راودنى ما انكرته .. عندى ألف مبرر ومبرر .. أنا واحد من جيل امتص هؤلاء اجمل سنوات عمره .. جعلوها تنمو فى وجه المخاطر والأحزان .. جحيم أربع حروب كفيل بأن يعطى للتشفى شرعيته .. اراهم أمامى كل الذين أبادوا حيواتهم من أبناء وطنى .. من حقى أن أتذوق جرعة احساس بالانتقام لهم .. أراهم الآن أمامى .. أصدقاء عمر .. وأحباء طفولة .. ورفاق يفاعة .. وجيران درب واحد .. وابناء اخوال وأعمال وفى القلب جرح ينزف .. ولكنى لم استشعر التشفى .. احس مذاق الانتصار ..

* وعند أحد المعابر فى الاسماعيلية يستغرقنى التأمل .. والسفن تمخر القناة .. شريان سلام وحضارة وعطاء .. تقدمه مصر للدنيا كلها .. سقاك الله خلودا حرب العاشر من رمضان .

مشاعر موارة تجرفنى .. لأول مرة مجيئى هنا .. أعبر الآن سلاما بعد أن رصفت لى دماء الشهداء طريق العبور .. سيناء ها أنت .. سيناء يا قدرنا .. هذا الانداح بلا حدود هو تاريخنا .. هذا الامتداد الى ما لا نهاية هو مستقبلنا .. الذكريات تتداعى .. التاريخ .. الأحداث .. الملاحم .. جحافل

الغزاة .. روعة المقاومة .. الارتداد .. كنت حصـار الجلغب
سيناء . كونى امتداد الحضرة . الحلم ياخذنى فى احضانه ..
هذه المساحات الشاسـعة .. لو امتدت اليها يد الارادة وقدرة
العلم .. واصرار الانسان .. فماذا يمكن أن تكون .. امنيـة
عمرى أن اعود مرة أخرى . وقد انداحت هنا الخضرة .. وازدهر
العمران واحلم .. سيناء .. احساس يراودنى بأنك المستقبل ؟ .

* عند « الخربة » .. قوات البوليس الدولى .. ورجال
الصليب الأحمر ومن ورائهم البوليس الحربى الاسرائيلى .. وعن
كثب منهم الكهنة والعربات ..

جنود مصر يحملون صناديق الجثث فى احترام عسـكرى
ويضعونها أمام البوليس الدولى ..

هذه الحيوات التى أبيدت فى عمر الزهور ، من الذى دفعها
للأتون .. ساقوها للموت بلا قضية .. ماتوا من أجل وهم ..
احاول أن اقمع احساس الرثاء .. الموت من أجل قضية عادلة
يستحق الاحترام .. ولكن موت هؤلاء من أجل ماذا ؟ مثل موت
لص عند اقتحام بيوت الوادعين . أيتها الجثث قولى لهم هذا .
لم ننتزع منك نبض الحياة إلا من أجل الحياة ..

قولى لهم أيتها الجثث ان القوة بغير شرعية الحق هباء ..
قد تعربد فترة .. قد تنتصر مرة .. وربما أكثر من مرة ..
قد تغتصب فى غفلة .. ولكن فى النهاية تنتظرها الكبوة .. وتبقى
أوطان الآخرين لأصحابها قولى لهم هـذا .. ربما هـذه المرة
يسمعون .. !!

* منذ جئت لم تستهونى غرابة المراسيم ولا طرافتها ..
كل ما يهمنى ان ارصد انفعالاتهم .. هؤلاء الجنود الصغار وهم

ينظرون نحونا .. برغم وقفتهم العسكرية الصارمة .. يخالسوننا النظرات .. ينظرون الينا والى صناديق جثث قتلاهم .. التمزق فى عيونهم أراه .. أراه برغم ما يحاولونه قسرا كيلا تشف قاماتهم المنتصبة عما يحتدم فى أعماقهم .. أقلب البصر فيهم فاقرأ الاحساس بالهزيمة .. وهذه الجثث شاهدها .. اربع سنوات والصحراء تنبت لهم الجثث بين الحين والآخر .. لتكون فضيحة لهم وامام الشهود .. !!

اغمس نظراتى من بعيد فى عين شاب من جنودهم اسمر الوجه .. فهم ما تعنيه نظراتى .. استوعبها .. كان من الممكن ان تكون انت .. ومازال الاحتمال قائما .. جاوبتنى نظرته متفاهمة فى ومضة خاطفة .. ثم ابعد نظراته عنى يحدق فى امتداد الصحراء .. حتى لا ارى نزيفه .. !!

* الكهنة يتلون بالعبرية بعض كلمات التوراة .. امام كل جثة على حدة .. ذقونهم طويلة كثة هؤلاء الكهنة .. ولكنها ممشطة وجوههم لا تشف عن شىء تحتها .. وجوه الصبية من البوليس الحربى هى التى تتكلم أحيانا لمن يعنيه أن يتحدث اليها .. اما هؤلاء .. الكهنة فلا تقول عيونهم شيئا .. قد يكون سر المهنة .. !!

* أبناء سيناء وقد احتشدوا يرقبون المشهد .. يكظمون الانفعالات .. يحاولون كبح جماح المشاعر فى مواجهة اللحظة .. لم يستطيعوا .. بشر هم وأصحاب أرض .. انفجرت المشاعر قبل أن تنتهى المراسم .. فى لحظة مثل هذه يصبح الصمت سياطا . لقد كابدوا القهر .. جرعوه علقما وملحا وصابا .. شربوه حتى النخاع .. من حقهم أن يمارسوا لحظة انتصار ..

واحد ضباط قوات مصر المسلحة يهرع اليهم .. يناشـــدهم مراعاة حرمة اللحظة قبل أى اعتبار .. !!

* انتهت المراسم .. وقعوا على وثيقة الاستلام .. وانطلقت عرباتهم بالجثث فى الاتجاه المضاد .. لاحت لى وجوه أعرفها .. وجوه شـــهداء من الذين تلاقت خطواتى بخطواتهم فى أكثر من درب واكثر من طريق .. وتقاسمنا خبز الوطن وملحه .. رايتهم وجها لوجه .. صدقونى رأيتهم .. بالواحد رأيتهم .. أقسم بالله رأيتهم .. ليس خيـــالا .. ليس تهيؤا قد تكون تداعيـــات اللحظة وصوفيتها .. لكنى رايتهم .. كانوا يبتسـمون فى صفاء ووداعة وارتياح ..

هذا الصــوت .. وآخرون

صحوت على أسراب الذباب .. وطنين البعوض .. وضجة السوق . وصوته ! عرفت أنها فتحت النافذة . هــذا الرجل ســوف يقتلنى حتما .. يوما ما ستجهز على خناجر اغنياته .. أتوقع هــذا .. اذا نفذت من الجنون !

قمت وأغلقت النافذة .. أحتمل الاختنــاق ورائحة وابور الجاز .. أفضل من الثقوب التى تحدثها كلماته فى أعصابى .. أشعر أنها تسوط روحى .. احتجت زوجتى .. تدافعت ولولتها من المطبخ عن الرطوبة والهــواء الفاســد .. والصــغار الذين سأجلب لهم السل . بهذا الاختناق الذى أفرضه .. لم أرد .. لست راغبا فى استفتاح إليوم بخناقــة .. عندما تكاثف دخان الوابور وانتشرت العتمــة .. وتلاحقت ســعلات الأطفــال .. همت زوجتى بفتح النافذة . ولكنها تراجعت عندما قرأت الجنون فى نظراتى !!

تناولت كوب الشــاى .. ووضعت أوراقى على الطقطوقــة وشرعت فى الكتابة .. لا جدوى .. من خلف اضلاف النافذة ينفذ الى صوته .. منطلقا من كل الأجهزة فوق عربات الخضار ومقاطف السمك . ضجة السوق تتشابك بأغنيات حبه فوق وحبه تحت .. وست البنات يا شابه .. أفكارى تتجمد .. تبخر كل ما حضرته لاصــوغه .. الوابور يوش .. طفلتى الرضيعة تصرخ .. والشارع ملحمة جنون . والتسجيلات تتقيأ . السح الدح امبو . ادى الواد لأبوه .. يا أولاد الأفاعى أبوه يحــاول اصطياد كلمات يجلب له بها القوت .. لا أستطيع نهضت احمل الصغيرة التى التاثت صرخاتها .. أهدهدها .. ست البنــات يا شابه .. الذى يغنيها يا صغيرتى ينقطونه بسبعمائه جنيه فى الليلة الواحدة .. ملك الملوك اذا وهب !! وأبوك يحفر الصخور بقلمه منذ ربع قرن ولم يستطيع أن يستأجر لكم شــقة تليق بسكنى بنى آدم .. كوافلك الداخلية تهرأت والعين بصيرة واليد قصيرة .. وعدوية ينقطــه رواد الكباريهات سبعمائة جنيه فى الليلة الواحدة لا أحسده يا صغيرتى .. أنا قانع بحالى .. لست من هؤلاء الذين يتوجه اليهم أصحاب عربات النقل والتاكسيات ومحلات الجزارة والكشرى .. والأكشاك التى تحولت فى حاراتنا الى بوتيكات .. بالعبارة المــأثورة « يا ناس يا شر كفاية أر » لست حاسدا لهم ولا لهذا الذى كلما زعق سلامتها أم حسن .. وفول بالزيت الحــار .. وكله على كله وحبه فوق وحبه تحت .. انهالت عليه النقطة من فوق ومن تحت .. بالدنانير والدولارات .. والاسترلينى والريالات .. وكله عــاوز من كله .. زاده الله من نعيمه وأكثر من نقوطه .. والدنيا حظوظ ومزاجات .. كمــا تقول اغنية المشاغبين المدرســة التى أصبحت مناهجها مقررة علينا . ومأثورات جهابذتها تتردد الآن فى الشوارع والمقاهى وتعبأ فى التسجيلات واشرطة الكاست .. والمطلوب من عيالنا الآن ان

يصموا أقوال سعيد صالح وعادل امام والتلميذ التخين الذى وصف والده ناظر المدرسة بأنه مهروش ..

لا أستطيع الاحتمال .. هـذا الزعيق من يوقفه .. مأساة ان يقترن الفقر بالاحساس المرهف .. منذ شغرى تعودت أن أذهب الى منتـديات تقدم شـوبان وموزار وبيتهوفن وسـيد درويش : كل ما حولى الآن عدوية .. والنعيق .. ثمة ميكروب ينهش روحى كلما أطلقوا على صوته .. !!

شارعنـا تحول منذ اعـوام الى موقف عربات كارو .. ومرابط حمير وسـوق خضـار واكشاك فى عرض الطريق . ومقاطف ثوم وجوالات بصـل ومشنات سبانخ . وتلال زبالـة وبحيرات مجـارى ومعامل تفريخ ذباب وناموس وحشرات أخرى اجهل اسماءها . ولا انام .. شارعنا سيىء الحظ فرغم أن به ثلاث مدارس أطفال وساحة شعبية ومكتب صحة ومسجدا .. الا أن شوارع مجاورة أقل منه قيمة امتلأت بالبوتيكات .. ولم ينل شارعنا من الانفتاح غير الزبالة والحشرات .. وعدوية .. فكل عربـة فى الشـارع كل كشـك .. كل قفـة بسـاريا .. ومشـنة قراميط .. أو كوم كرنب .. يعـلوه جهـاز تسجيـل تزعق منه شرائط مطرب العصر والأوان .. كل بائعة حولها ثلاثة من المخلوقات التى يدعونها أكبادنا تمشى على الأرض .. هنـا لا تمشى .. تزحف غالبا .. وعلى الجوال يرقد الرابع . ومن فتحة جانبية فى ثوبها تلقم الخامس ثديها والجهـاز على الفخذ وعدوية خلت الدنيا له ويزعق بأعلى حسه !

نامت الصغيرة فوق كتفى .. عاودت محاولة الكتابة .. لا جدوى عدويه يخترق الجدران بفضـل التكنولوجيا ويتفقئنى.

ولا ينوبنى من اغلاق النافذة غير أن تعطن الشقة من نفاد الهواء ودخــان الوابور ورطوبـة الأرض .. فتحت النافـذة . هجم الذباب والناموس .. وانقض زعيق عدوية هادرا من أكثر من جهاز .. رأسى تدور .. تدوخ .

خرجت اليهم أناشدهم الكف عن هذا الجحيم .. بعضهم تذرع بحريته ومزاجه .. والبعض الاخر وعد بأن يوطى التسجيل اكراما لخــاطرى .. وهم يتبادلون نظرات واشارات تعنى أننى مهفوف وعليهم ان يأخذونى على قدر عقلى .. ما أن استدرت عائدا حتى تناهت الى تعليقاتهم : « سلامتها أم حسن » المقطع الأول من احدى مأثورات عدوية التى ينقط بالمئات من اجلها .. وأنا لو هفنى المزاج وكتبت لى قصة .. وكنت محظوظا ونجحت فى نشرها .. تطاردنى مصلحة الضرائب .. وتلاحقنى بالاخطار تلو الانذار ، لأحضر للمحاســبة ومعى المســتندات .. وأصرف ما يتبقى معى من قروش المكافأة بعد خصم ضريبة المنبع فى اللف على كل المصالح والأجهزة التى يحتمل أن يتعــامل معها الأديب لاحضار شهادات رسمية بقيمة ما تقاضيته !!!

لم ينفذوا وعدهم .. ما أن هممت بالكتابة حتى انطلقت اجهزة التسجيل على آخر مدى . لمت أوراقى وخرجت أترصد لى فى الشــارع المجاور مقهى غفل جرسونه عن اكتشاف عبقرية صاحبنا .. عندما وجدته طلبت الشــاى واستغرقت فى الكتابة بعد قليل امتدت يد صاحب المقهى .. وعبث بجهــاز التسجيل بجوار صندوق المــارك .. وخرج لى عدوية !!

دفعت الحساب وقمت :

أشعر بالجنون .. أين أذهب .. ولا واحة يمكن أن إلجــأ

اليها لتعطينى الهدوء .. وتبعد عنى صوته المنطلق من كل مقهى وكل دكان ؟

فى الصيف الماضى عندما تدهورت اعصابى نصحنى بعض الأصدقاء بالذهاب الى الاسكندرية لعدة أيام من أجل ترويق دمى .. فى اسبورتنج تصادف ان رأيت ثلاثة اشخاص يعاكسون فتاة صغيرة .. دفعتنى عنتريتى الصعيدية لأن اتدخل .. تفوهت بكلمات من اياها .. عن العيب والاخلاق . شحط منهم القمنى حجرا .. لا تتفلسف قالها لى ..

واردف .. عدوية يبنى العمارة الثالثة .. لم أجد ما أقوله ما دام عدوية يبنى العمارة الثالثة .. فكل شىء مباح ..

يا جيل الخنافس والضياع .. كل شىء مباح . !!

فى نفس اليوم ركبت تاكسى بالنفر وعدت من الطريق الزراعى .. منذ ان تحرك التاكسى من سيدى جابر وسائق العربة يقرع اذنى بأشرطة عدوية كلما انتهت رحله هذه الشرائط .. عاد من البداية .. لا فائدة من الاعتراض كل من فى العربة من عشاقه .. الكل يصفق على ايقاع صوته .. وتعليقات أكاد أتقيأ منها .. عندما وجدتنى على حافة اللوثة طلبت من السائق بأدب أن يدير جهاز الراديو فى العربة لنسمع شيئا .. نظر الجميع الى فى دهشة .. كومة الكتب فى يدى أقنعتهم بأننى من « اياهم » لم يعترضوا مباشرة ولكن نظراتهم أفرزت السخط .. هتف صاحب الشارع الغربى بمقدمته بعدها انطلقت موسيقى محمومة هذا عصر الجنون .. ارحم من عدوية ..

بعد دقيقة واحدة اعترض الركاب الستة .. فى نفس واحد قالوها .. هات عدوية .. كان السائق ينتظرها جاء عدوية

وليطيب السائق خاطرى قدم لى سيجارة وهو يقول .. الأغلبية يا بيه . ها .. الأغلبية .. على العين والراس .. ارتع بأغلبيتك يا عدوية وحسبى الجنون ..

افقت على صوت زوجتى تطلب منى أن أبعد الولد عنها .. لتنهى شغلها .. نهرت الصغير .. بعد لحظات عادت تطلب منى الخروج لاحضار سباك للحوض الذى انسد .. خطر لى أن أخبط راسى فى الجدار . وصوتها يلاحقنى بالتأنيب الأننى لا اتحرك .. الجنون يقترب منى .. من ذا يشفينى من مرض عدم التوافق مع هذا الزمن .. أشعر بأننى خدعت . خدعنى هؤلاء الذين أدمنت كتابتهم منذ صغرى .. الذين حدثونى عن الثقافة والفن الرفيع .. ودور الكلمة فى بناء الحضارة .. كلهم كذبة .. لا أحد فيهم نبهنى بأننى سألتقى بعدوية والآخرين فى نهاية الطريق !! ..

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٧٣ / ٢٠٠١

I.S. B. N 977 - 01 - 7394 - 6





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



١٥٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب